جَنى اللُّبَاب فِيمَا وَرَدَ فِي

الصَّبرِ وَالاحتِسَاب



اسم الكتاب: جنى اللباب فيما ورد في الصبر والاحتساب

المؤلف: أم الفضل أمة الرحمن بنت عليّ الفقيه

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١٦٠٥١

نوع الطباعة: ٢لون

عدد الصفحات: ١١٢صفحة

القياس: ١٧×٢٤

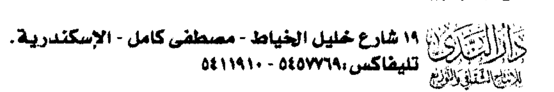
تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف: عادل المسلماني.

الإدارة

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٠ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات

دار القمة
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٠ - ٥٢٢٢٠٠٢



١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٠ - ٥٤١١٩١٠

دار الإيمان
أمام كوبري النزهة القديم - النزهة - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٠ - ٣٨١٦٠٤٢
فرع النزهة

فرع القاهرة

العربية للتوزيع
درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر - القاهرة.
تليفون: ٢٥١٢٠٦٢١
خلف الجامع الأزهر

E-mail dar_aleman@hotmail.com

جَنَى اللُّبَابِ فِيمَا وَرَدَ فِي



اجتناء
الراجية عفو ربها
أم الفضل أمة الرحمن بنت علي الفقيه






بسم الله الرحمن الرحيم

كَلِمَةُ شُكْرٍ

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ.

أمَّــا بَعْدُ:

فإنِّي أَلْهَجُ بالشُّكْرْ والثَّناءِ على اللهِ ـ جلَّ وعَلَا ـ أوَّلًا وآخِرًا، باطناً وظاهراً على نِعَمِهِ الَّتي أَسْبَغَهَا عَلَيْنا ظاهرةً وباطنةً، ولَوْلَا توفيقُهُ لَـمَـا تحقَّق كتابي هذا.

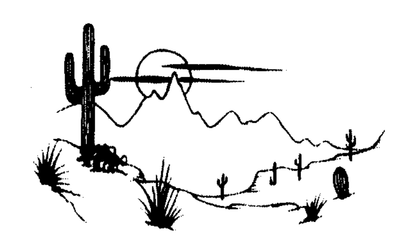
ثُمَّ شُكْري مَوْصُولٌ، ودُعائي مَبْذُولٌ لَزَوْجي وقُرَّةِ عَيْني أبي عَبْدِ الله فَيْصَلٍ الحاشديِّ، الَّذي كان سبباً في إخراج هذا الكتاب، ولَطَالما شَجَّعني على طَلَبِ العلْم، ويَسَّرَ لي سُبُلَهُ، وهُوَ مَنْ بيَّنَ لي مَنْهَجَ سَلَفِنَا الصَّالح القَويمَ، وتعاهدني بالتَّربية والتَّوجيهات مُنْذُ صِغَري، فَلَمْ أَكُنْ ـ بفَضْلِ اللهِ ثُمَّ بأَخْذِ زوجي بيديَّ ـ مُنْتسِبةً في وقتٍ ما لِحزْبٍ مِنْ أَحْزابِ الشَّيطانِ، الَّتي عمَّتْ بها البَلْوَى في هذا الزَّمانِ، إلَّا مَنْ عَصَمَ الرَّحمنُ.

ومَهْما أَثْنَيْتُ على زَوْجي، فَلَنْ أُوَفِّيَهُ حقَّهُ، فَلَهُ منِّي ـ إنْ شاء اللهُ ـ دُعاءٌ إلى أَنْ يُوارِ بَني الثَّرَى، وهذا جُهْدُ مُقِلٍّ، جَزَاهُ اللهُ عنِّي خيراً.

ولِمَشَايخنَا الأَجلَّاء، وإخوتنا الأَعِزَّاء الَّذين جادوا لنا مِنْ وَقْتِهِمْ في مُراجعةِ هذا الكِتَابِ ـ كُلُّ شُكْرٍ وتَقْديرٍ، أَجْزَلَ اللهُ مَثُوبَتَهُمْ، وبارك في أعمارِهِمْ وأعمالِهِمْ، وزادَهُمْ هُدىً وتوفيقاً.

والله أسألُ أنْ يُوفِّقنا جميعاً لِمَا فيه صلاحُ العِبَادِ والبِلَادِ، وأَنْ يَمُنَّ عَلينا بصَلَاح النَّوايا، وحُسْنِ الأَحْوال، وأَنْ يجْعَلَنا مِنَ الدُّعاةِ إليه على بصيرةٍ، وأَنْ يَأْخُذَ بأيدينا إلى البرِّ والتَّقْوى، وأَنْ يَغْفِرَ لنا، ولوالدينا، ومشايخنا، وعُلَمائِنا، وكُلِّ مَنْ لَهُ فَضْلٌ عَلَيْنا، إنَّهُ أكْرَمُ الأكْرَمينَ، وأَرْحَمُ الرَّاحمينَ.

وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا مُحمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمة

الحَمْدُ للهِ الصَّبُور الشَّكُور، الَّذي جَرَتْ مشيئتُهُ في خَلْقِهِ بتصاريفِ الأُمُور، خَلَقَ الموتَ والحياةَ ليَبْلُوَ عبادَهُ أيُّهم أَحْسَنُ عملًا وهو العزيزُ الغفورُ، ونَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ شَهادةَ صابرٍ على مُصابِهِ، مُوقنٍ بما وَعَدَ اللهُ على الصَّبْرِ مِنْ جَزيلِ ثَوابِه، وأَوْعَدَ على السَّخَطِ مِنْ وَبيلِ عقابه، ونَشْهَدُ أَنَّ محمَّداً عَبْدُهُ ورسولُهُ، أعْرَفُ الخَلْقِ به، وأقومُهُمْ بخشيتِه، وأنصَحُهم لأُمَّتِه، وأصبرُهم لحُكْمِه، وأشكَرُهُمْ لِنَعَمِهِ، بَلَّغ الأُمَّةَ رسالةَ ربِّه مُتحمِّلًا في مَرْضاته ما لم يتحمَّلْهُ بَشَرٌ سِوَاهُ، فثَبَت في مقامِ الصَّبْرِ حتَّى لم يَلْحَقْهُ أحدٌ مِنَ الصَّابرين، وتَرَقَّى في دَرَجةِ الشُّكْرِ حتَّى علا فَوْقَ جميعِ الشَّاكرين، فصلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَدَدَ ما حَمِدَ اللهَ الحامدون، وعَدَدَ ما شكرَهُ الشَّاكرون.

ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ:

فهذا كتابٌ أسميتُهُ **جَنى اللُّباب فيما وَرد في الصَّبْرِ والاحتساب**، جَنيتُهُ مِنْ رياضِ القُرآنِ وصحيحِ السُّنَّةِ، وما أُثِرَ عَنِ الصَّحابةِ وسَلَفِ هذهِ الأُمَّةِ، وما حَسُنَ مِنَ الكلامِ المَنْثُورِ، ورقائقِ المَنْظُومِ؛ ليكونَ تذكرةً لِذَوي الألباب، وتسْليَةً لكُلِّ محزونٍ مُصاب، يُثْلِجُ صَدْرَهُ، ويَجْلُو حُزْنَهُ، ويَشْفي غمَّهُ، ويُهَوِّنُ خَطْبَهُ، ويَجْلُبُ صَبْرَهُ، ويُشْهِدُهُ أَجْرَهُ ... واللهُ المَسْئُولُ أَنْ يجعلَهُ صافياً مِنْ شوائبِ الرِّياءِ؛ لينتفعَ النَّاسُ به في سائرِ الأرجاءِ، وأنْ يُلْهِمَنا التَّسليمَ لأَمْرِهِ والرِّضا بمُرِّ القضاءِ، إنَّهُ سميعٌ قريبٌ مُجيبُ الدُّعاءِ.

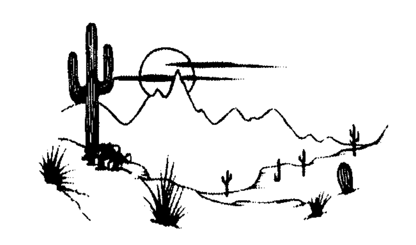
هذا وإنّي لأَرْجُو مِنَ المُنْتفعين بِهِ الدُّعاءَ لي ولزَوْجي ووالديَّ، وعلى اللهِ الكريم اعتمادي، وإليه تفْويضي واستنادي، وحَسْبيَ اللهُ وَنِعْمَ الوكيلُ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ العزيزِ الحكيم.

ودَوَّنَتْهُ

أمُّ الفضل أمةُ الرَّحمن بنتُ عليِّ بن محمَّد الفقيه

يَوْمَ الأربعاءِ لعَشْرٍ بقِينَ مِنْ شَهْرِ ربيع الثَّاني

سَنَةَ ثلاثين وأربعمائةٍ وألْفٍ مِنَ الهِجْرَةِ



تعريفُ الصَّبْرِ

الصَّبْرُ لغةً :

اخْتُلِفَ في أَصْلِ هذِهِ الكلمة على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوّل: المَنْعُ والحَبْسُ :

ومنه قولهم: قُتِلَ فُلانٌ صَبْرًا، وحُلِّفَ صَبْرًا أَيْ: محبوسًا مأسورًا.

ومنه قولُه -تعالى- : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾(الكهف: ٢٨)، أيْ: احبِسْ نَفْسَكَ معهم.

فالصَّابرُ يحبِسُ قَلْبَهُ عَنِ الجَزَعِ والتَّسَخُّطِ على المقدورِ، ولسانَهُ عَنِ الشَّكوى إلى المخلوقِ، وجَوارحَهُ عَنْ لَطْمِ الخُدُودِ، وشَقِّ الجُيوبِ[١]، ونَتْفِ الشُّعورِ، ونَحْوِ ذلك.

الثَّاني: الشِّدّة والقُوّة :

ومنه الصَّبْرُ : للدَّواءِ المعروف لِشدَّةِ مرارتِهِ وكراهَتِه.

ومنه الصُّبر ـ بالضَّمِّ وبضمَّتَيْنِ ـ : للأرضِ ذَاتِ الحَصْباءِ لِشدَّتِها وصَلابَتِها.

ومنه صَبَارَّةُ الشِّتاءِ ـ بتخفيف الباءِ، وتشديدِ الرَّاءِ، وقَدْ تُخَفَّفُ ـ : لِشدَّةِ بَرْدِهِ.

ومنه قولُهم: وَقَعَ القَوْمُ في أُمِّ صَبُّورٍ ـ بضمِّ الباءِ مُثَقَّلةً ـ أَيْ: في أمر شديدٍ.

فالصَّابرُ يُكابِدُ الشِّدَّةَ ويُقاسيها.

---

(١) الجُيُوب ـ بالضَّمِّ والكَسْر ـ : جَمْعُ جَيْب ـ بالفتح ـ ، وهو الخَرْقُ الَّذي يُخْرِجُ الإنسانُ مِنْهُ رَأْسَهُ في القَميصِ وَنَحْوِهِ، والمُرادُ بَشقِّهِ: إكمالُ فَتْحِهِ إلى آخِرِهِ.

الثَّالث: الجَمْعُ والضَّمُّ:

ومنه الصُّبْرَةُ ـ بالضَّمِّ ـ: للطَّعامِ المُجْتمعِ كالكُومةِ.

ومنه الصبارة ـ بالتَّثليث ـ: للحجارةِ الغَليظةِ المُجتمعة.

فالصَّابرُ يجمعُ نَفْسَهُ، ويُضمُّها عَنِ الهَلَعِ والجَزَعِ.

قال ابنُ القيم رحمه الله:

«والتَّحقيقُ أنَّ في الصَّبْرِ المعانيَ الثَّلاثةَ: المَنْعَ، والشِّدَّةَ، والضَّمَّ».

وَفِعْلُ هذا البابِ صَبرَ ـ بالفَتْحِ ـ يَصْبِرُ ـ بالكَسْرِ ـ[1].

الصَّبْرُ اصطلاحًا:

قال الرَّاغبُ رحمه الله:

«هو حَبْسُ النَّفْسِ على ما يَقْتَضِيهِ العَقْلُ والشَّرْعُ، أَوْ عمَّا يَقْتضيان حَبْسَها عَنْهُ»[2].

وقال ذو النُّون رحمه الله:

«هو التَّباعدُ عَنِ المُخالفاتِ، والسُّكونُ عِنْدَ تجرُّعِ غُصَصِ البَلِيَّةِ، وإظهارُ الغِنَى مَعَ حُلُولِ الفَقْرِ بساحاتِ المعيشةِ»[3].

وقيل: «الصَّبْرُ: المُقامُ مَعَ البَلَاء بِحُسْنِ الصُّحْبةِ كالمُقامِ مَعَ العافيةِ»[4].

---

(١) انظر «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٣١-٣٢).
(٢) «مفردات الرَّاغب» (٥٢٧٣).
(٣) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٣٤).
(٤) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٣٤).

من أسماء الصَّبْر بِحَسَبِ مُتعلَّقه

قال الفَيْرُوزَ اباديُّ: «ورُبَّما خُولِفَ بَيْنَ أسمائِه بحَسَبِ اختلافِ مواقعِه، فإن كان حَبْسُ النَّفْسِ لِمُصيبةٍ سُمِّيَ صَبْرًا، وإن كان في محاربةٍ سُمِّي شجاعةً، وإن كان في إمساكِ الكلامِ سُمِّي كِتْمانًا، وإن كان عَنْ فُضُولِ العَيْشِ سُمِّي زُهْدًا، وإن كان عن شَهْوةِ الفَرْجِ سُمِّيَ عِفَّةً، وإن كان عن شهوةِ طعامٍ سُمِّي شَرَفَ نَفْسٍ، وإن كان عن إجابةِ داعي الغَضَبِ سُمِّي حِلْمًا»[١].

وزاد ابنُ القيِّم رحمه الله على ما هنا:

«وإن كان على قَدْرٍ يكفي من الدُّنيا سُمِّي قناعةً، وإن كان عن إجابةِ داعي العَجَلةِ سُمِّي وَقَارًا وثباتًا، وإن كان عَنْ إجابةِ داعي الانتقام سُمِّي عَفْوًا أو صَفْحًا، وإن كان عن إجابةِ داعي الطَّعام والشَّراب في وَقْتٍ مخصوص سُمِّي صَوْمًا، وإن كان عن إجابة داعي العَجْزِ والكَسَلِ سُمِّي كَيْسًا[٢]، وإنْ كان عن إجابة داعي إلقاء الكَلِّ[٣] على النَّاس وعَدَم حَمْلِ كَلِّهم ـ سُمِّي مُروءةً، فَلَهُ عند كُلِّ فعلٍ وتَرْكٍ اسمٌ يَخُصُّهُ بحَسَبِ مُتعلَّقِه، والاسمُ الجامعُ لذلك كُلِّه (الصَّبْرُ)، وهذا يدلُّك على ارتباطِ مقاماتِ الدِّينِ كُلِّها بالصَّبْرِ مِنْ أوَّلها إلى آخرِها»[٤].

فبان مِمَّا ذُكِرَ أنَّ أكثرَ أَخْلاقِ الإيمانِ داخلةٌ في الصَّبْرِ، وإنِ اختلفتِ الأسماءُ باختلافِ المُتَعلَّقات.

---

(١) «بصائر ذوي التَّمييز» (٣/ ٣٨٣)، وانظر «التَّعريفات» للجُرْجانِّي (ص ١٣١).
(٢) الكَيْس ـ بوَزْن الكَيْل ـ: ضدُّ الحُمْقِ.
(٣) الكَلّ ـ بالفتح ـ: الثِّقْل، والجمع كُلُول.
(٤) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٣٨ - ٣٩) بتصرُّف.

حُكْمُ الصَّبْرِ

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَةَ رحمه الله: «والصَّبْرُ واجبٌ بإجماعِ العُلَمـاءِ»[١].

وقال ابنُ القيِّم رحمه الله: «وهو واجبٌ بإجماعِ العُلَمـاءِ»[٢].

والصَّبْرُ نِصْفُ الإيمـان، فعنِ ابْنِ مسعودٍ رضي الله عنه: «الإيمـانُ نِصْفانِ: نِصْفٌ صَبْرٌ، ونِصْفٌ شُكْرٌ»[٣].

ويَدُلُّ على وجوب الصَّبْرِ أمورٌ:

الأمْرُ الأوَّلُ: أَمْرُ الله به في غَيْرِ ما آيةٍ، كقولِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة: ١٥٣).

وقوله: ﴿ ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

الأَمْرُ الثاني: نَهْيُهُ عن ضدِّه، كقولِهِ: ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

و﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ (القلم: ٤٨)، أَيْ: في ضَعْفِ صَبْرِهِ لحكم ربِّه، وهروبِهِ من المسيرِ إلى نِينَوَى[٤].

و ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٣)، فإنَّ إبطالَها تَرْكٌ للصَّبْرِ على إتمامِها.

و﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، فإنَّ الوهنَ من عدم الصَّبْرِ.

وبالجُمْلةِ فكُلُّ ما نَهى عنه يُضادُّ الصَّبْرَ المأمورَ به.

---

(١) «الفُرقان بَيْنَ أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان» (ص ٢٦٥).

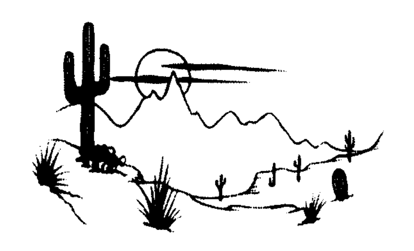
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢٦).

(٣) رواه البُخاريُّ (٣٠٠١)، ومسلم (١٩٢٧)، وأحمدُ (٢/ ٢٣٦)، ومالكٌ في «المُوطَّإ» (٢/ ٩٨٠).

(٤) نِينَوَى ـ بكسر أوَّلِه ـ: قرية بالمَوْصِلِ ليُونُسَ عليه السلام.

الأَمْرُ الثالث: أنَّ الله - تعالى - رَتَّبَ عليه خَيْرَيِ الدُّنيا والآخرةِ، وما كان كذلك كان تحصيلُهُ واجبًا.

هذا هو حُكْمُ الصَّبْرِ من حَيْثُ الجُمْلةُ، وسيأتي - إن شاء اللهُ - حُكْمُهُ تفصيلا.



مكانةُ الصَّبْرِ وفَضِيلتُهُ

قَدْ بَلَغَتِ المواضعُ الَّتي ذكر اللهُ فيها الصَّبْرَ في كتابِهِ العزيزِ تَسْعين ونَيِّفًا[1][2]، وهذا يدلُّ على عظيمِ مكانتِهِ، ورفيعِ منزلتِهِ.

وقَدْ ورد للصَّبْرِ في الكتابِ والسُّنَّةِ فضائلُ جَمَّةٌ[3]:

أحَدُها: ثناءُ اللهِ على أهْلِه، وهو كثيرٌ في القرآنِ:

كقوله -تعالى-: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٧).

وقوله -تعالى-: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وأثْنَى على عَبْدِهِ أيُّوبَ بأحسنِ الثَّناءِ على صَبْرِهِ، فقال:

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤).

وهذا يَدُلُّ على أنَّ مَنْ لم يَصْبِرْ إذا ابْتُلِيَ فإنَّهُ بِئْسَ العَبْدُ!.

الثَّانية: إيجابُ اللهِ محبَّتَهُ للصَّابرين، وفي ذلك أعظمُ ترغيبٍ للرَّاغبين:

كقوله -تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

الثَّالثة: ظَفَرُ الصَّابرين بمعيَّةِ اللهِ لهم بِحَسَبِ نصيبِهم مِنَ الصَّبْرِ:

كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦).

---

(١) النَّيِّف ـ بالفتح والمُثقَّلةُ أفصحُ من المُخفَّفةِ ـ: العَدَدُ الَّذي بَيْنَ عِقْدَيْنِ، ولا يُقالُ نَيِّفٌ إلَّا بَعْدَ عِقْدٍ: كعشرةٍ ونيِّفٍ، ومائةٍ ونيِّفٍ، وألفٍ ونيِّفٍ.

(٢) قال الإمام أحمدُ رحمه الله: «الصَّبْرُ في القرآن في نحْو تسعين موضعًا». «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٢٦).

وقال ابْنُ تيميَّةَ رحمه الله: «قد ذكر اللهُ الصَّبْرَ في كتابه في أكثرَ من تسعين موضعًا». «البصائر» (٣/ ٣٧٦).

(٣) انظر «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١١٣ - ١٢٠)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٢٧ - ١٢٨).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

وهذه المعيَّةُ ليستْ بالمعيَّةِ العامَّةِ الَّتي هي معيَّةُ العِلْمِ والإحاطةِ، بَلْ هي معيَّةٌ خاصَّةٌ تتضمَّنُ حِفْظَهُمْ وهدايتَهم، ونَصْرَهُمْ وتأييدَهم.

قال أبو عليٍّ الدَّقَّاقُ: «فاز الصَّابرون بعزِّ الدَّارين؛ لأنَّهم نالوا مِنَ الله مَعِيَّتَهُ».

الرَّابعة: إخبارُ اللهِ ورسولِهِ ﷺ بأنَّ الصَّبْرَ خيرٌ لأهْلِه:

قال -تعالى- مُقسمًا قسَمًا مؤكدًا غاية التَّأكيد: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ (النَّحل: ١٢٦).

فتأمَّل هذا التَّأكيدَ بالقَسَمِ المَدْلُولِ عليه بالواو ثُمَّ باللَّام بَعْدَهُ، ثُمَّ باللَّامِ الَّتي في الجواب.

وعن أبي سعيد الخُدريِّ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعْطِيَ أَحَدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ مِنَ الصَّبْرِ**[1]»[2].

وعن صُهيبِ بنِ سنانٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ؛ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلَّا للمُؤْمِنِ، إنْ أصابتْهُ سرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيرًا له، وإنْ أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَرَ، فكان خيرًا له**»[3].

والخيرُ الحاصلُ للشَّاكرين هو الزِّيادةُ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم: ٧)، والخيرُ الحاصلُ للصَّابرين هو الأَجْرُ اللَّا مقدورُ واللَّا محدودُ؛ ولهذا قال عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العزيز رحمه الله: «ما أنعم اللهُ على عَبْدِهِ نعمةً، فانتزعها منه، فعاضَهُ مكانَها الصَّبْرَ - إلَّا كان ما عوَّضه خيرًا ممَّا انتزعه منه»[4].

---

(١) هذا بَعْدَ نُزُولِ البَلاء، ليس للعَبْدِ أَوْسَعُ مِنْ ساحةِ الصَّبْرِ، وأمَّا قَبْلَهُ فساحةُ العافيةِ أوسعُ من ساحةِ الصَّبْرِ.

(٢) رواه البُخاريُّ (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٣) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٤) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٥٣).

الخامسة: إيجابُهُ ـ سبحانه ـ الجزاءَ لأهله بأحْسنِ أعمالهم:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النَّحل: ٩٦).

السَّادسة: ضَمانُ الوفيِّ الصَّادقِ مُضاعفةَ أَجْرِ الصَّابرين على غيْرِه:

قال ـ تعالى ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ (القصص: ٥٤).

وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزُّمر: ١٠).

قال الأوزاعيُّ رحمه الله: «ليس يُوزَنُ لهم ولا يُكال، إنَّما يُغْرَفُ لهم غَرْفًا»[١].

وقال سليمانُ بنُ القاسم: «كُلُّ عملٍ يُعْرَفُ ثوابُهُ إلَّا الصَّبْرَ»، قال اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، قال: «كالماءِ المُنْهمرِ».

ولذا جاء في حديث جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لَيَوَدَّنَّ أهلُ العافيةِ يومَ القيامةِ أنَّ جُلُودَهُمْ قُرِضَتْ[٢] بالمَقاريضِ؛ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ ثوابِ أَهْلِ البلاءِ»[٣].

السَّابعة: إطلاقُ البُشرى من الله للصَّابرين: بأنَّ جزاءَهُمْ هو الحصولُ على ثلاثةِ أمورٍ لم تُجمَعْ لغيْرِهِم، كُلٌّ منها خيرٌ مِمَّا عليه أهلُ الدُّنيا يتحاسدون: قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧).

قال بَعْضُ السَّلَف ـ وقد عُزِّيَ على مُصيبةٍ نالتْهُ ـ: «مالي لا أصبرُ وقد وعدني اللهُ على الصَّبْرِ ثلاثَ خصالٍ، كُلُّ خَصْلةٍ منها خيرٌ من الدُّنيا وما عليها؟!».

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥٧).
(٢) القَرْضِ: القطعُ، وبابُهُ ضَرَبَ.
(٣) رواه التِّرْمذيُّ (٢٤٠٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٤٨٤)، و«الصَّحيحة» (٢٢٠٦).

الثَّامنة: ضَمَانُ النَّصْرِ والمَدَدِ لأهل الصَّبْرِ والتَّقوى:

قال -تعالي- : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٥).

التَّاسعة: أنَّ الله ـ تعالى ـ جعل الصَّبْرَ والتَّقوى جُنَّةً عظيمةً من كَيْدِ العَدُوِّ ومَكْرِه، ولو كان ذا تسليطٍ:

قال -تعالي- : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

العاشرة: أنَّه سببٌ للتَّمكين في الأرض:

فقد أخبر ـ سبحانَهُ ـ عن نبيِّه يُوسُفَ عليه السلام أنَّ صَبْرَهُ وتَقْواهُ أَوْصَلَاهُ إلى محلِّ العزِّ والتَّمكين، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠).

الحاديةَ عَشْرَةَ: أنَّه يُورِثُ صاحبَهُ دَرَجةَ الإمامةِ:

قال ابنُ تَيميَّةَ رحمه الله: «بالصَّبْرِ واليقين تُنالُ الإمامةُ في الدِّين»، ثُمَّ تلا قولَهُ ـ تعالى ـ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السَّجدة: ٢٤).

فإنَّ الدِّينَ كُلَّهُ عِلْمٌ بالحقِّ وعملٌ به، وطَلَبُ عِلْمِهِ والعملُ به لابُدَّ فيهما من الصَّبْرِ».

قال سُفيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ في هذهِ الآيةِ: «لمَّا أخذوا برَأْسِ الأَمْرِ؛ جعلناهم رُءوسًا»[1].

الثَّانيةَ عَشْرَةَ: أنَّ الصَّبْرَ على المصائبِ من العزائم الَّتي تجارةُ أربابها لا تَبورُ:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الشورى: ٤٣).

---

(١) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٥٤).

وقال لقمانُ لابنه: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧).

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦).

الثالثةَ عَشرَةَ: أنَّ الأعمالَ الصَّالحة وثوابَها والحظوظَ العظيمةَ لا يُلقَّاها إلَّا أولو الصَّبْر:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ (القصص: ٨٠).

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (فُصِّلَتْ: ٣٤، ٣٥).

الرَّابعةَ عشْرَةَ: أنَّ الفوزَ بالجنَّةِ والنَّجاةَ من النَّار لا يَحْظى به إلَّا الصَّابرون:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١١).

قال ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠).

فعلَّق ـ سبحانَهُ ـ الفَلاحَ ـ الَّذي هو الفوْزُ بالمطلوب، والنَّجاةُ من المكروهِ ـ بمجموعِ هذهِ الأمور.

الخامسةَ عَشْرَةَ: أنَّ الله ـ تعالى ـ خصَّ بالانتفاعِ والاتِّعاظِ بآياتِهِ وعِبَرِهِ أهْلَ الصَّبْرِ والشُّكر:

فقال في أربع آياتٍ من كتابِهِ: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم: ٥)، (لقمان: ٣١)، (سبأ: ١٩)، (الشُّورى: ٣٣).

السَّادسة عَشْرَةَ: أنَّ الله ـ سبحانه ـ جعله عَوْنًا وعُدَّةً، فأوصانا بالاستعانةِ به وبالصَّلاةِ على نوائبِ الدُّنيا والدِّين:

فقال: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ ﴾ (البقرة: ٤٥).

فَمَنْ لا صَبْرَ له لا عَوْنَ له.

السابعة عَشْرَةَ: **أنَّ الله ـ سبحانه ـ قرنه بأركان الإسلام ومقاماتِ الإيمـان كلِّها:**

﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (البقرة: ١٥٣).

﴿ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ ﴾ (النَّحل: ١١٠).

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ (هود: ١١).

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ (يوسف: ٩٠)[1].

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾.

(إبراهيم: ٥)، (لقمان: ٣١)، (سبأ: ١٩)، (الشُّورى: ٣٣).

﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ (العصر: ٣)[2].

﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ (البلد: ١٧).

﴿ لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ٢٤).

﴿ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل: ٤٢)، (العنكبوت: ٥٩).

---

(١) كُلُّ موضع قرن الله ـ تعالى ـ فيه التَّقوى بالصَّبر فقد تناول مقامات الإسلام والإيمان كُلَّها؛ فإنَّ حقيقة التَّقوى: فعْلُ المأمور، وتَرْكُ المَحظور.

(٢) كرَّر ـ سبحانه ـ لفظة (التَّواصي) مع الصَّبرِ تعظيمًا لمنزلته، وتنبيهًا على أهمِّيَّتِه المُسْتَقِلَّةِ بذاتِه، واستحقاقِه لأنْ يُتواصَى به أصْلًا لا تَبَعًا.

الثَّامنةَ عَشْرَةَ: أنَّه صفةٌ للهِ ـ جلَّ جلالُه ـ، أطْلقها عليه أعْرَفُ الخلْقِ به وأعظمُهم تنزيهًا له بصيغةِ المُبالغةِ.

فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «ما أَحَدٌ أَصْبَرُ على أذىً[1] سَمِعَهُ مِنَ اللهِ؛ يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ، ثُمَّ يُعافيهم ويَرْزُقُهُمْ»[2].

وفي أسمـائه الحُسْنَى (الصَّبُورُ)، وهو أبلغُ من الصَّابر والصَّبَّار.

ومعناهُ: الَّذي لا يُعاجلُ العُصاةَ بالانتقام، وهو قريبٌ من معنى الحليم، والحليمُ أبلغُ في السَّلامةِ من العقوبةِ.

وصَبْرُهُ ـ سبحانه ـ يُفارِقُ صَبْرَ المخلوق من عدَّةِ وُجُوهٍ، منها:

١ - أنَّه عن كمالِ عِلْمٍ وقُدْرةٍ، وعظمةٍ وعزَّةٍ.

٢ - أنَّه لا يـخاف الفَوْتَ، والعَبْدُ إنَّمـا يَـحْمِلُهُ على المُسارعة بالعقوبةِ خَوْفُ الفَوْتِ، واللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ قادرٌ على ذلك حالًا ومآلًا، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ولا يَفُوتُهُ.

٣ - أنَّه لا يَلْحَقُهُ بِصَبْرِهِ ألمٌ ولا حزنٌ ولا نَقْصٌ بوجهٍ ما.

فالتَّفاوُتُ الَّذي بَيْنَ صَبْرِهِ ـ سبحانه ـ وصَبْرِ عبادِهِ كالتَّفاوُتِ الَّذي بَيْنَ حياتِهِ وحياتِهِمْ، وعِلْمِهِ وَعِلْمِهِمْ، وكذا سائرُ صفاتِهِ.

ولو لم يكن للصَّبر من الفضيلة إلَّا كَوْنُهُ صفةً لله ـ تعالى ـ، لكفى به شرفًا وفَضْلًا، فكيف وله من الفضائل ما لا يُحْصَى؟!!.

---

(١) المُرادُ بالأذَى: أذَى رُسُله وأوليائه بتكذيبهم في الصَّاحبةِ والوَلَد عن الله، فأُضِيفَ الأذَى لله ـ تعالى ـ للمُبالغة في الإنكار عليهم والاستعظام لمقالتهم، واللهُ ـ تعالى ـ يُسْتحالُ تعَلُّقُ أذَى المخلوقين به؛ لكونه صفةَ نَقْص، وهو مُنَزَّهٌ عن كُلِّ نَقْص.

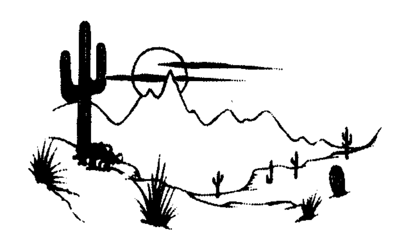
(٢) رواه البُخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

ولمَّا كان الصَّبْرُ بهذه الأهمِّيَّة والمنزلةِ الرَّفيعةِ السَّامية؛ قال عليٌّ رضي الله عنه: «ألَا إنَّ الصَّبْرَ من الإيمان بمنزلةِ الرَّأسِ من الجسدِ، فإذا قُطِعَ الرَّأْسُ بار[1] الجسدُ».

ثُمَّ رفع صَوْتَهُ فَقَالَ: «أَلَا إنَّه لا إيمانَ لِمَنْ لا صَبْرَ لَهُ»[2].

فكما أنَّه لا جَسَدَ لِمَنْ لا رَأْسَ له، فلا إيمانَ لِمَنْ لا صَبْرَ له، وإن كان فإيمانٌ نَزْرٌ[3] في غاية الضَّعْفِ، وصاحبُهُ ممَّن قال الله فيهم:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الحج: ١١)[4].



(١) بار: هَلَكَ، وبابُهُ قال، وبَوارًا ـ أيضًا ـ.
(٢) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٥٣).
(٣) النَّزْر ـ بالفتح ـ: القليل.
(٤) الحَرْفُ في الأصلِ: الطَّرَفُ والجانب، والمرادُ به في الآيةِ ـ كما قال أكْثَرُ المُفَسِّرينَ ـ: الشَّكُّ، فمَنْ يعبدُ الله على شَكٍّ قَلِقٍ في دينه على غير ثبات وطمأنينة، كالَّذي هو على حَرْفِ الجبل ونَحْوِهِ يضطربُ اضطرابًا، ويضعف قيامُهُ. انظر «فتح القدير» (ص ١١٥٦).

أقسامُ الصَّبْرِ

١ - أقسامُ الصَّبْرِ باعتبار محلّه:

الصَّبْرُ باعتبار محلِّهِ أربعةُ أقسامٍ:

أ - البَدَنيُّ الاختياريُّ:

كتعاطي الأعمـال الشَّاقَّةِ على البَدَنِ اخْتِيَارًا وإرادةً.

ب - البَدَنيُّ الاضطراريُّ:

كالصَّبْرِ على أَلَمِ الضَّرْبِ، والمَرَضِ والجراحاتِ، والبَرْدِ والحرِّ، وغَيْرِ ذلك.

جـ - النَّفْسانيُّ الاختياريُّ:

كَصَبْرِ النَّفْسِ عَنْ فِعْلِ ما لا يَحْسُنُ فِعْلُهُ شَرْعًا ولا عَقْلًا.

د - النَّفسانيُّ الاضطراريُّ:

كَصَبْرِ النَّفْسِ عَنْ مَـحْبُوبِها قَـهْرًا إذا حِيـلَ بَيْنَها وبَيْنَهُ.

والبهائم تُشاركُ الإنسانَ في صَبْرِ البَدَنِ والنَّفْسِ الاضطراريَّيْن، وقَدْ يكونُ بعضُها أقوى صَبْرًا مِنَ الإنسانِ، وكثيرٌ من النَّاسِ مَنْ تكُونُ قُوَّةُ صَبْرِهِ في النَّوعَيْنِ الاضطراريَّيْن اللَّذَيْن يُشاركُ فيهما البهائمَ، لا في النَّوْعَيْنِ الاختياريَّيْنِ اللَّذَيْنِ يَخُصَّانِ الإنسانَ؛ فيُعَدُّ صابرًا، وليس من الصَّابرينَ[1].

---

(١) انظر «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٤٣).

٢ - أقسامُ الصَّبْرِ باعتبار تعلُّقه بقضاءِ اللهِ الشَّرعيّ والكونيّ

الصَّبرُ بهذا الاعتبار ثلاثةُ أقسامٍ:

الأوَّل: صبر العَبْدِ على الأوامرِ والطَّاعاتِ حتَّى يُؤَدِّيَها.

الثَّاني: صبره عن المناهي والمُخَالَفاتِ حتَّى لا يَقَعَ فيها.

الثَّالث: صبره على الأقدار والأقضيةِ حتَّى لا يتسخَّطَها.

فالأوَّلانِ صبرٌ على ما يتعلَّقُ بالكسبِ، والثَّالثُ صبرٌ على ما لا كسبَ للعَبْدِ فيه.

والدِّينُ كُلُّهُ مرجعُهُ إلى هذِهِ القواعدِ الثَّلاثِ: فِعْلِ المأمورِ، وتَرْكِ المحظورِ، والصَّبْرِ على المقدورِ.

وهي الَّتي أوصى بها لُقْمانُ ابنَهُ في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (لُقمان: ١٧).

فأمَّا القِسْمانِ الأخيرانِ فأمرُهما ظاهرٌ، وأمَّا القِسْمُ الأوَّلُ فالعبدُ مُحتاجٌ إلى الصَّبْرِ على الطَّاعةِ؛ لأنَّ النَّفْسَ بطَبْعِها تَنْفِرُ عن كثيرٍ من العُبُوديَّة؛ أمَّا في الصَّلاةِ فَلِما في طَبْعِها من الكَسَلِ وإيثارِ الرَّاحةِ، ولا سيَّما إذا اتَّفق مع ذلك قَسْوةُ القَلْبِ وَرَيْنُ الذَّنْبِ، والمَيْلُ إلى الشَّهَواتِ، ومُخالطةُ أهلِ الغَفْلة، فلا يكادُ العبْدُ ـ مَعَ هذِهِ الأُمُورِ وغَيْرِها ـ أنْ يَفْعَلَها، وإنْ فعلها ـ مع ذلك ـ كان مُتكلِّفًا غائبَ القَلْبِ، ذاهلًا عنها، طالبًا لفراقِها كالجالس إلى الجيفة.

وأمَّا الزَّكاة فَلِما في النَّفْسِ من الشُّحِّ والبُخْلِ، وكذلك الحجُّ والجِهادُ للأمرين جميعًا وطبعًا.

والعَبْدُ يحتاجُ إلى الصَبر على الطَّاعة في ثلاثة أحوالٍ:

الحالة الأولى: الصَّبر قَبل الشُّروع في الطَّاعةِ بتصحيح النِّيَّة والإخلاص، والتَّبرُّؤِ من شوائبِ الرِّياءِ، وعَقْدِ العَزْمِ على توفيةِ المأموريَّةِ حقَّها.

قال ـ تعالى ـ : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (هود: ١١).

فقدَّم الله ـ سبحانه ـ الصَّبْرَ على العَمَلِ.

الحالة الثانية: الصبر أثناءَ الطَّاعةِ باستصحاب ذِكْرِ النِّيَّة، وحضورِ القَلْبِ بين يَدَي المعبودِ، وتجنُّب دواعي التَّقصير والتَّفريطِ؛ ليأتيَ بها على أكملِ وَجْهٍ مشروعٍ، مُتَّبِعًا ما بيَّنهُ الرَّسولُ ﷺ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّة[1].

الحالة الثَّالثة: الصَّبْرُ بَعْدَ الفراغ مِنَ الطَّاعةِ بعَدَم الإتيان بما يُبْطلُها.

قال ـ تعالى ـ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

وأن يصبرَ عَنِ العُجْب والتكبُّر بها؛ فإنَّ هذا أضرُّ على العَبْدِ مِنْ كثيرٍ من المعاصي الظَّاهرةِ، وأنْ يصبرَ عَنْ نَقْلِها مِنْ ديوانِ السِّرِّ إلى دِيوانِ العَلَانيةِ بالتَّحدُّثِ بها، فلا يظنّ أنَّ بِسَاطَ الصَّبْر انطوى بالفراغ من الطَّاعةِ[2].

٣- أقسامُ الصَّبرِ باعتبارِ تعلُّقِه بالله - تعالى -

الصَّبرُ بهذا الاعتبار على ثلاثةِ أنواعٍ:

أ- الصَّبرُ باللهِ:

وهو استعانةُ العبدِ بربِّهِ وقُوَّتهِ ومَعُونتِهِ، لا بنفسِهِ ولا بالخَلْق، فاللهُ هُوَ المُصَبِّرُ، أمَّا العَبْدُ فلا قُوَّةَ لَهُ على الصَّبْر، بَلْ حالُهُ التَّحقُّقُ بـ(لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله) عِلْمًا

---

(١) القُذَّة ـ بالضَّمِّ ـ : ريشُ السَّهمِ، والجمعُ قُذَذٌ وقذاذٌ، والحَذْوُ: التَّقدير والقَطْعُ، وقولُهم: «حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة» يَعْني: كما تُقَدَّرُ كُلُّ قُذَّةٍ منهنَّ على قَدْرِ صاحبتِها وتُقْطَعُ، مَثَلٌ يُضْرَبُ للشَّيئين يستويان ولا يتفاوتان.

(٢) انظر «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٥٢-٥٣، ١٠٣-١٠٥).

ومعرفةً وحالًا، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ (النحل: ١٢٧)، أَيْ: إنْ لم يُصَبِّرْكَ هُوَ لم تَصْبِرْ.

ب- الصَّبْرُ للهِ:

وهُوَ أن يكونَ الباعثُ للعَبْدِ على الصَّبْرِ هُوَ محبَّةَ الله، ورجاءَ ثوابِه، وخَوْفَ عقابِهِ، لا لإظهارِ قُوَّةِ النَّفْسِ، والاستحمادِ إلَى الخَلْقِ، وغَيرِ ذلك من الأَغراضِ.

جـ- الصَّبْرُ مع اللهِ:

وهُوَ ثَبَاتُ العَبْدِ مَعَ اللهِ على أحكامه الدِّينيَّة، يتوجَّهُ مَعَها أَيْنَ توجَّهتْ رَكائبُهُا، ويَنْزِلُ معها أين استقلَّتْ مضاربُها، قَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ وَقْفًا على أوامر اللهِ ومَحابِّه، فيكونُ ـ دائمًا ـ معه بالمحبَّة والمُوافقةِ، لا مع نَفْسِهِ[1].

٤- أقسامُ الصَّبْرِ باعتبار تَعَلُّقِ الأحكامِ التكليفيَّة الخمسة بِهِ

ينقسمُ الصَّبْرُ بهذا الاعتبار إلى خمسةِ أقسام:

واجبٍ، ومَنْدُوبٍ، ومحظورٍ، ومكروهٍ، ومُباحٍ.

أ- الصَّبْرُ الواجبُ ثلاثةُ أنواعٍ:

أحدها: الصَّبرُ عَنِ المُحرَّماتِ.

والثاني: الصَّبرُ على أداءِ الطَّاعاتِ.

والثالث: الصَّبرُ على المصائبِ الَّتي لا صُنْعَ للعَبْدِ فيها: كالأمراضِ، والفَقْرِ، وغيرها.

ب- الصَّبْرُ المَنْدُوبُ نَوْعَانِ:

أحدها: الصَّبرُ عَنِ المَكْرُوهَاتِ.

---

(١) انظر «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٣٠-١٣١).

والثاني: الصَّبرُ على المُسْتَحباتِ: كَصَبْرِ الإنسانِ في الفِتْنَةِ على مُسْلمٍ يُريدُ قَتْلَهُ(١).

جـ - والصَّبْرُ المَحْظورُ:

هُوَ الصَّبْرُ على المُحَرَّماتِ، ومن أمثلَتِه:

- صَبْرُ الإنسانِ عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ حتَّى يموتَ.

- وصَبْرُهُ عَنِ المَيْتةِ والدَّمِ ولَحمِ الخِنْزيرِ عِنْدَ المَخْمَصةِ(٢) إذا خاف بتَرْكِهِ الموتَ.

- وصَبْرُهُ على ما يَقْصِدُ هَلاكَهُ: مِنْ سُبُعٍ، أو حيَّاتٍ، أو حَرِيقٍ، أو ماءٍ، أو كافرٍ يُريدُ قَتْلَهُ.

د - والصَّبْرُ المَكْروهُ مِنْ أمْثِلَتِه:

- صَبْرُ الإنسانِ عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ واللِّبْسِ وجِمَاعِ أَهْلِهِ حتَّى يتضرَّرَ بذلك بَدَنُهُ.

- وصَبْرُهُ عَنِ جِمَاعِ زَوْجَتِهِ إذا احتاجتْ إلى ذلك، ولم يتضرَّرْ به.

- وصَبْرُهُ عَنْ فِعْلِ المُسْتَحبِّ.

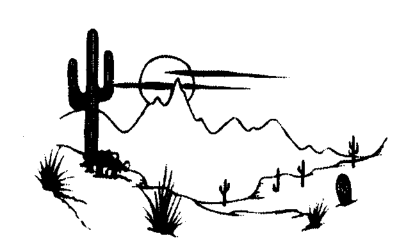
---

(١) قَدْ حَكَى اللهُ استسلام خَيْرِ ابْنَيْ آدَمَ، وأثْنَى عليه بذلك، فقال على لسانِه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٨).
وقد سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ عَنْ هذه المسألةِ بعَيْنِها، فقال: «فَلْيَكُنْ كخير ابْنَيْ آدَمَ». أخرجه أبو داوُدَ (٤٢٥٩) وابْنُ ماجَهْ (٣٩٦١)، وابن حبَّان (٥٩٦٢)، والبيهقيُّ (٨/ ١٩١) عَنْ أبي مُوسى الأشعريِّ رضي الله عنه، وصحَّحه الألبانيُّ رحمه الله في «الإرواء» (٨/ ١٠٢).
وفي لَفْظ: «كُنْ عَبْدَ الله المَقْتُولَ، ولا تَكُنْ عَبْدَ الله القاتلَ». أخرجه أحمدُ (٥/ ١١٠)، والآجُرِّيُّ في «الشَّريعة» (ص ٤٢-٤٣)، والطبرانيُّ في «الكبير»، وحسَّنه الألبانيُّ بشواهده في «الإرواء» (٨/ ١٠٤).
وفي لَفْظ آخَرَ: «إنْ خشيتَ أنْ يَبْهَرَكَ شُعاعُ السَّيف، فألْقِ طَرَفَ ردائكَ على وَجْهك، فيَبُوءَ بإثمه وإثْمكَ، فيكونَ مِنْ أصحابِ النَّار». أخرجه أبو داوُدَ (٤٢٦١)، وابْنُ ماجَهْ (٣٩٥٨)، والحاكمُ (٤/ ٤٢٤)، والبَيْهَقيُّ (٨/ ١٩١) عَنْ أبي ذرٍّ رضي الله عنه، وصحَّحه الألبانيُّ رحمه الله في «الإرواء» (٢٤٥١).
(٢) المَخْمصة - بالفتح -: المجاعة.

هـ - والصَّبْرُ المُباحُ:

هُوَ الصَّبرُ عَنْ كُلِّ فِعْلٍ مُستوي الطَّرفَيْنِ، خُيِّرَ بَيْنَ فِعْلِهِ وتَرْكِهِ والصَّبر عليه.

وبالجُمْلةِ: فالصَّبرُ على الواجب واجبٌ وعنه حرامٌ، والصَّبرُ عَنِ الحرامِ واجبٌ وعليه حرامٌ، والصَّبرُ على المستحبِّ مُستحبٌّ وعَنْهُ مَكروهٌ، والصَّبرُ عَنِ المكروهِ مُسْتحبٌّ وعليه مكروهٌ، والصَّبرُ عَنِ المُباحِ مُباحٌ[1].



(١) انظر «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٥٧-٥٩).

مَراتِبُ الصَّبْرِ ودَرَجاتُهُ

١- مراتبُ الصّبْرِ باعتبار محلّه

الصَّبْرُ الاختياريُّ أرفعُ وأكملُ من الصَّبْرَ الاضطراريِّ؛ فإنَّ الاضطراريَّ يشتركُ فيه النَّاسُ، ويتأتَّى ممَّن لا يتأتَّى منه الصَّبْرُ الاختياريُّ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه الله: «كان صَبْرُ يُوسُفَ عليه السلام عَنْ مُطاوعةِ امرأَةِ العزيزِ على شَأْنِها أكملَ من صَبْرِهِ على إلقاءِ إخوتِهِ له في الجُبِّ[1]، وبَيْعِهِ وتفريقِهم بَيْنَهُ وبَيْنَ أبيه؛ فإنَّ هذهِ أمورٌ جَرَتْ عليه بغير اختيارِهِ لا كسبَ له فيها، ليس للعبدِ فيها حيلةٌ غَيْرَ الصَّبْرِ، وأمَّا صَبْرُهُ عن المعصيةِ فَصبرُ اختيارٍ ورضىً ومُحاربةٍ للنَّفْسِ، ولا سيَّما مع الأسبابِ الَّتي تَقْوَى معها دواعي المُوافقةِ:

ـ فإنَّهُ كان شابًّا، وداعيةُ الشَّبابِ إليها قويَّةٌ.

ـ وعَزَبًا ليس له ما يُعَوِّضُهُ، ويُبَرِّدُ شهوتَهُ.

ـ وغريبًا والغريبُ لا يستحي في بَلَدِ غُرْبتِهِ ممَّا يستحي منه مَنْ بَيْنَ أصحابِهِ ومعارفِهِ وأَهْلِهِ.

ـ ومملوكًا والمملوكُ ـ أيضًا ـ ليس وازعُهُ كوازعِ الحُرِّ.

ـ والمرأةُ جميلةٌ، وذاتُ منصبٍ، وهي سيِّدتُهُ، وقَدْ غاب الرَّقيبُ، وهي الدَّاعِيةُ له إلى نَفْسِها، والحريصةُ على ذلك أشَدَّ الحِرْصِ، ومع ذلك توعَّدتْهُ ـ إنْ لم يفعلْ ـ بالسِّجْنِ

---

[1] الجُبّ ـ بالضَّمِّ ـ: البِئْر الَّتي لم تُطْوَ، سُمِّيتْ جُبًّا؛ لأنَّها قُطِعتْ في الأرض قطعًا، والجمعُ جِبَبَة، وجِباب، وأجباب.

والصَّغَار[١].

ومع هذهِ الدَّواعي كُلِّها صَبَرَ اختيارًا وإيثارًا لما عِنْدَ اللهِ، وأَيْنَ هذا من صَبْرِهِ في الجُبِّ على ما ليس من كسبهِ؟!» ا.هـ

وكذلك كان صَبْرُ نوحٍ، والخليلِ، والكليمِ، والمسيحِ، وخاتمِ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهم أجمعينَ ـ كان صَبرُهم على ما نالهم في الدَّعوةِ إلى اللهِ باختيارهم وفعلهم، ومُجاهدةِ أعداءِ اللهِ ـ أكملَ من صَبْرِ أيُّوبَ على ما ناله في اللهِ من ابتلائه وامتحانِهِ بما ليس مُسبَّبًا عن فِعْلِهِ؛ ولهذا سمَّاهُمُ اللهُ أُولي العَزْمِ، ودارتْ قِصَّةُ الشَّفاعةِ يومَ القيامةِ عليهم، حتَّى ردُّوها إلى أفضلِهم وأصبرِهم لحكمِ اللهِ.

وكذلك كان صبرُ إسماعيلَ الذَّبيحِ وصبرُ أبيه الخليلِ عليه السلام على تنفيذ أَمْرِ اللهِ ـ أكملَ من صَبْرِ يَعقوبَ على فَقْدِ يُوسُفَعلى تنفيذ أَمْرِ اللهِ ـ أكملَ من صَبْرِ يَعقوبَ على فَقْدِ يُوسُفَ[٢].

٢- مراتبُ الصَّبْرِ باعتبار تعلُّقِهِ بقضاءِ اللهِ الشَّرْعيِّ والكونيِّ

الصَّبْرُ على التَّكاليفِ (أَي: الأوامرِ والنَّواهي) أفضلُ من الصَّبْرِ على الأقدار، فإنَّ الصَّبْرَ على الأوامرِ والنَّواهي صَبْرُ أتباعِ الرُّسُلِ، والصَّبْرُ على المقدورِ يأتي به البَرُّ والفاجرُ، والمؤمنُ والكافرُ، فلابُدَّ لكُلِّ أحدٍ من الصَّبْرَ على القَدْرِ اختيارًا أو اضطرارًا.

ولأنَّ الصَّبْرَ على الأوامرِ والنَّواهي صَبْرُ اختيارٍ وإيثارٍ ومحبَّةٍ، والصَّبر على المقدور صَبْرُ ضرورةٍ، وبَيْنَهما من البَوْن[٣] ما قَدْ عَرَفْتَ.

---

(١) الصَّغار ـ بزنة السَّحاب ـ: الذُّلّ.
(٢) انظر «عُدَّةُ الصَّابرينَ» (ص ٦٠)، و«مَدَارِجُ السَّالكينَ» (٢/ ١٣٠، ١٤٠).
(٣) البَوْن: المسافة بَين الشَّيئَيْن في الفَضْل والمزيَّةِ، وبابُهُ قال.

قال ميمونُ بنُ مِهرانَ: «الصَّبْرُ صَبْرانِ: فالصَّبْرُ على المُصيبةِ حسنٌ، وأفضلُ منه الصَّبْرُ عن المَعْصِيةِ»(١).

والصَّبْرُ على الطَّاعةِ فَوقَ الصَّبْرِ عَنِ المَعْصِيَةِ في الرُّتْبةِ والدَّرَجةِ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَةَ رحمه الله:

«الصَّبْرُ على أداءِ الطَّاعاتِ أكملُ من الصَّبْرِ على اجتنابِ المُحرَّماتِ؛ فإنَّ مصلحةَ فِعْلِ الطَّاعةِ أحبُّ إلى الشَّارعِ من مصلحةِ تَرْكِ المعصيةِ، ومفسدةَ عَدَمِ الطَّاعةِ أبغضُ إليه وأكرهُ من مفسدةِ وجودِ المعصيةِ»(٢).

ولأنَّ الصَّبْرَ على الطَّاعةِ يتضمَّنُ إلزامًا وفعلًا، والفِعْلُ فيه نَوْعٌ مِنَ المشقَّةِ والتَّعَبِ، والصَّبر عن المعصية فيه إلزامٌ للنَّفْسِ بالتَّرْكِ فَقَطْ.

إذًا الصَّبْرُ ثلاثةُ أنواعٍ: أعلاها الصَّبْرُ على طاعةِ اللهِ، ثُمَّ الصَّبْرُ عن معصيةِ اللهِ، ثمَّ الصَّبْرُ على أقدارِ اللهِ(٣)(٤).

٣- مراتبُ الصَّبْرِ باعتبارِ تعلُّقِهِ باللهِ -تعالى-

الصَّبْرُ مَعَ اللهِ أعلى أنواعِ الصَّبْرِ؛ فإنَّه صبرُ الصِّدِّيقين، والصَّبْرُ للهِ فوقَ الصَّبْرِ باللهِ وأعلى درجةً منه وأجلُّ، وبيانُ ذلك من وجوهٍ:

---

(١) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١١٢)، و«تسلية أهل المصائب» (ص ١٩٣).

(٢) «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٣٠).

ولابن تيميَّة رحمه الله في ذلك مُصَنَّفٌ قرَّر ذلك فيه بنحوٍ من عشرين وَجْهًا، وقد ذكر هذِهِ الوُجُوهَ تلميذُهُ ابْنُ القيِّم في «عُدَّةُ الصَّابرِينَ» (ص ٦٦-٧٤).

(٣) هذه المراتب من حَيْثُ هِيَ بقَطْعِ النظر عن الصَّابر، وإلَّا فقد يكونُ الصَّبْرُ عن المعصية أشقَّ على الإنسان مِن الصَّبر على الطَّاعة، إذا فُتِنَ شابٌّ ذو شَهْوةٍ -مثلًا- بامرأةٍ جميلةٍ تُراوِدُهُ عن نفسها في خَلْوةٍ، فقد تكونُ مائةُ ركعةٍ أهونُ عليه من هذا، وقد يكون صبرُ الإنسانِ على موتِ عزيزٍ له أشقَّ عليه من الصَّبْرِ على الطاعة.

(٤) انظر «عُدَّةُ الصَّابِرِينَ» (ص ٦٤).

أحدها: أَنَّ الصَّبرَ لله مُتعلِّق بأُلوهيَّتِهِ، والصَّبْرَ به مُتعلِّقٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وما تعلَّق بأُلوهيَّتِهِ أكملُ وأَعْلى مِمَّا تعلَّق بِرُبُوبِيَّتِهِ؛ ولذلك كان توحيدُ الأُلوهيَّة هو المنهيَّ من الشِّرْكِ دُونَ توحيدِ الرُّبُوبيَّةِ بمجرَّدِه؛ فإنَّ عُبَّادَ الأصنام كانوا مُقرِّين بأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ خالقُ كُلِّ شيءٍ وربُّهُ ومليكُهُ، ولكنْ لَمَّا لم يأتوا بتوحيدِ الأُلوهيَّةِ ـ وهو عبادتُهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له ـ لم ينفعْهُم توحيدُ رُبُوبيَّتِهِ.

الثاني: أَنَّ الصَّبرَ له عبادةٌ، والصَّبْرَ به استعانةٌ، والعبادة غايةٌ، والاستعانة وسيلةٌ، والغاية مُرادةٌ لنفسها، والوسيلة مُرادةٌ لغيرها؛ ولذلك وجب الوفاءُ بالنَّذْرِ إذا كان تَبَرُّرًا وتقرُّبًا إلى الله؛ لأَنَّه نَذْرٌ له، ولم يجبِ الوفاءُ به إذا خرج مَخْرَجَ اليَمينِ؛ لأَنَّه حَلِفٌ به.

الثالث: أَنَّ الصَّبرَ له منزلةُ الرُّسلِ والأنبياءِ والصِّدِّيقين، أَمَّا الصَّبْرُ به فَمُشتركٌ بَيْنَ المُؤمنِ والكافرِ، والبرِّ والفاجرِ.

الرابع: أَنَّ الصَّبرَ لَهُ صَبْرٌ فيما هو حَقٌّ له محبوبٌ له، والصَّبر به قد يكونُ في ذلك، وقد يكونُ فيما هو مسخوطٌ له، وقد يكونُ في مكروهٍ أو مُباحٍ، فأين هذا من هذا؟!»[1].

وأَمَّا مراتبُ النَّاسِ من حيثُ الصَّبْرُ للهِ وباللهِ فكما قال **ابْنُ القيِّم** رحمه الله:

«المَراتبُ أربعةٌ:

إحداها: مرتبةُ الكمالِ، وهي مرتبةُ أُولي العزائم، وهي الصَّبْرُ لله وبالله، فيكونُ في صبرِهِ مُبتغيًا وجهَ الله، صابرًا به، مُتبرِّئًا من حَوْلِهِ وقُوَّتِهِ، فهذا أقوى المَراتبِ وأرفَعُها وأفضَلُها.

الثانية: أَلَّا يكونَ فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخسُّ المراتبِ، وأردأُ الخَلْقِ، وهو جَديرٌ بكُلِّ خِذْلانٍ، وبكلِّ حِرْمانٍ.

(١) انظر «مَدارِج السَّالِكين» (٢/ ١٣١، ١٤٠)، و« عُدَّةُ الصَّابِرينَ » (ص ٧٦، ٧٧، ٨٠).

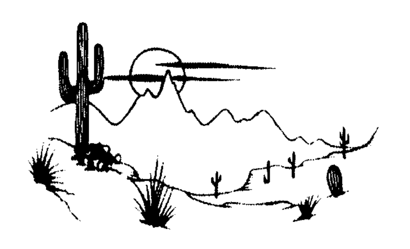
الثالثة: مرتبةُ مَنْ فيه صبرٌ بالله، وهو مُستعينٌ مُتوكِّلٌ على حَوْلِه وقُوَّتِه، مُتبرِّئٌ من حَولِه هُوَ وقُوَّتِهِ ولكن صبره ليس لله، إذ ليس صبرُهُ فيما هو مُرادُ الله الدِّينيُّ منه، فهذا ينالُ مطلوبَهُ، ويَظْفَرُ به، ولكنْ لا عاقبةَ له، ورُبَّما كانتْ عاقبتُهُ شرَّ العواقبِ.

وفي هذا المقام خُفراءُ[1] الكُفَّارِ وأربابُ الأحوالِ الشِّيطانيَّة، فإنَّ صَبْرَهم بالله، لا لله ولا في الله، وَلهم من الكَشْفِ والتَّأثيرِ بحسبِ قُوَّةِ أحوالِهم، وهم من جِنْسِ المُلُوكِ الظَّلَمةِ، فإنَّ الحالَ كالمُلْكِ يُعطَاهُ البرَّ والفاجرَ، المُؤمنَ والكافرَ.

الرابعة: من فيه صَبْرٌ لله، لكنَّه ضعيفُ النَّصيبِ من الصَّبْرِ به، والتَّوكُّلِ عليه، والثِّقةِ به، والاعتمادِ عليه، فهذا له عاقبةٌ حميدةٌ، ولكنَّه ضعيفٌ عاجزٌ، مخذولٌ في كثيرٍ من مطالبِه؛ لضَعْفِ نصيبه مِنْ ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ ، فنصيبُهُ من الله أقوى من نصيبه بالله.

فهذا حالُ المُؤمنِ الضَّعيفِ، وصابرٌ بالله لا لله حالُ الفاجرِ القويِّ، وصابرٌ لله وبالله حالُ المؤمنِ القويِّ، والمؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المُؤمنِ الضَّعيفِ.

فصابرٌ لله وبالله عزيزٌ حميدٌ، ومَنْ ليس للهِ ولا باللهِ مَذْمومٌ مخذولٌ، ومن هو بالله لا للهِ قادرٌ مَذْمومٌ، ومَنْ هو للهِ لا باللهِ عاجزٌ محمودٌ»[2] ا. هـ



(١) خُفراءُ: جمع خَفير، وخَفيرُ القوم خُجيرُهمُ الَّذي يكونون في ضمانِهِ ماداموا في بلادِهِ.
(٢) «مَدَارِج السَّالِكين» (٢/ ١٤١).

أشقُ الصَّبْرِ على النُّفُوسِ

مشقَّةُ الصَّبْرِ بحَسَبِ قُوَّةِ الدَّاعي إلى الفِعْلِ وسهولتِهِ على العَبْدِ، فإذا اجتمعا في الفعلِ، كان الصَّبرُ عنه أشقَّ شيءٍ على الصَّابرِ، وإنْ فُقِدا مَعاً سَهُلَ الصَّبْرُ عنه، وإن وُجِدَ أحدُهما، وفُقِدَ الآخَرُ، سَهُلَ الصَّبْرُ من وَجْهٍ، وصَعُبَ من وَجْهٍ.

فَمَنْ لا داعيَ له إلى القَتْلِ ـ مثلًا ـ، ولا هو سَهْلٌ عليه ـ فَصَبْرُهُ عنه من أيسر شيءٍ وأسهلِهِ، ومَنِ اشتدَّ داعيهِ إليه، وسَهُلَ عليه فِعْلُهُ ـ فصبرُهُ عنه أشقُّ شيءٍ عليه.

ولهذا كان صَبْرُ السَّبعةِ المذكورين في الحديثِ الآتي عِنْدَ اللهِ بمكانٍ.

فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: **«سَبْعةٌ يُظلُّهُمُ اللهُ ـ تعالى ـ في ظلِّه يَوْمَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّهُ: إمامٌ عَدْلٌ، وشابٌّ نَشَأَ في عبادةِ اللهِ، ورجلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المساجدِ، ورَجُلانِ تحابَّا في اللهِ، اجتمعا عليه، وتفرَّقا عليه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنْصبٍ وجمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها؛ حتَّى لا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يمينُهُ، ورَجُلٌ ذكر اللهُ خالياً، ففاضَتْ عَيْناهُ»**[1].

فإنَّ صَبْرَ الإمامِ المُتَسلِّطِ على العَدْلِ في قسمِهِ وحُكْمِهِ ورضاهُ وغَضَبِهِ، وصَبْرَ الشَّابِّ على عبادةِ اللهِ ومُخالفةِ هَوَاهُ، وصَبْرَ الرَّجُلِ على مُلازمةِ المسجدِ، وصَبْرَ المُتصدِّقِ على إخفاءِ الصَّدَقةِ حتَّى عن بَعْضِهِ، وصَبْرَ المَدْعُوِّ إلى الفاحشةِ مع كمالِ جمالِ الدَّاعيةِ ومَنْصِبِها، وصَبْرَ المُتحابَّيْنِ في اللهِ على ذلك في حالِ اجتماعِهما وافتراقِهما، وصَبْرَ الباكي من خَشْيةِ اللهِ على كِتْمانِ ذلك وعَدَمِ إظهارِهِ للنَّاسِ ـ مِنْ أشقِّ الصَّبْرِ.

---

(١) رواه البُخاريُّ (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).

وكانتْ عقوبةُ الشَّيخِ الزَّاني، والمَلِكِ الكذَّابِ، والفَقِيرِ المُختالِ ـ أشدَّ العقوبةِ؛ لسهولةِ الصَّبْرِ عن هذهِ المُحرَّماتِ عليهم لضَعْفِ دواعيها في حقِّهم، فكان ترْكُهمُ الصَّبْرَ عنها ـ مع سهولتِهِ عليهم ـ دليلًا على تمرُّدهم على الله، وعُتُوِّهم عليه، واستخفافِهِمْ بحقِّه.

فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثةُ لا يُكلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القيامةِ، ولا يُزكِّيهمْ، ولا ينظرُ إليهم، ولهمْ عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّابٌ، وعائلٌ مُسْتكبرٌ**»(١).

ومن ثَمَّ كان الصَّبْرُ عن معاصي اللِّسانِ والفَرْجِ من أصعبِ أنواعِ الصَّبْرِ؛ لِشدَّةِ الدَّاعي إليهما وسهولتهما؛ فإنَّ معاصيَ اللِّسانِ فاكهةُ الإنسانِ: كالنَّميمةِ، والغِيبةِ، والكذِبِ، والمِراءِ، والثَّناءِ على النَّفْسِ تعريضًا وتصريحًا، ونَحْوِ ذلك، فتتَّفق قوَّةُ الدَّاعي، وتيسُّرُ حركةِ اللِّسانِ؛ فيضعُفُ الصبرُ، ولا سيَّما إذا كانتْ المعاصي اللِّسانيَّةُ مُعتادةً للعبدِ؛ ولهذا تَجِدُ الرَّجُلَ يقومُ اللَّيلَ، ويَصُومُ النَّهارَ، ويتورَّعُ مِن استنادِهِ إلى وِسادةِ حريرٍ لحظةً واحدةً، ويُطلق لسانَهُ في الغِيبةِ، والنَّميمةِ، والفَكَهِ في أعراضِ الخَلْقِ، ورُبَّما رخَّص أهلُ الصَّلاحِ والعِلْمِ بالله والدِّينِ القَوْلَ على الله ما لا يعلمُ؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لِمُعاذ رضي الله عنه: «**أَمسِكْ عليك لسانَكَ**».

فقال: «وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلَّمُ به».

فقال: «**وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّار على مَنَاخِرِهِمْ إلَّا حصائدُ ألسنَتِهِمْ**»(٢).

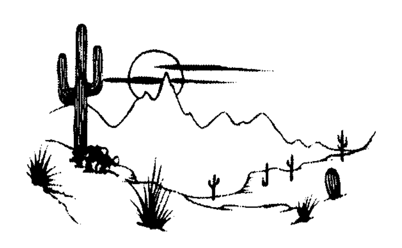
وكثيرٌ ممَّنْ تجِدُهُ يتورَّعُ عن الدَّقائقِ من الحرامِ، والقَطْرةِ من الخَمْرِ، ومثلِ رأس

---

(١) رواه مسلم (١٠٧).

(٢) رواه أحمدُ (٥/ ٢٣١، ٢٣٧)، والتِّرمذيُّ (٢٦١٦) وصَحَّحهُ، وابنُ ماجَهُ (٣٩٧٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥١٣٦).

الإبرةِ من النَّجاسةِ، ولا يُبالي بارتكابِ الفَرْجِ الحرام، كما يُحْكى: أنَّ رجلًا خلا بامرأةٍ أَجْنبيَّةٍ، فلمَّا أراد مُواقعتَها، قال: يا هذِهِ، غَطِّي وَجْهَكِ؛ فإنَّ النَّظَرَ إلى وَجْهِ الأجنبيَّةِ حرامٌ!! [1].



(١) انظر «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٠٩-١١١).

الصَّبْرُ على الابتلاءِ

الابتلاء نوعانِ:

الأول: الابتلاءُ بالشر. وهو مَنَاطُ الصَّبْرِ، وهذا يَشْمَلُ الابتلاءَ بالمِحَنِ والكوارثِ، ونَقْصِ الأموالِ والأنفسِ والثَّمراتِ مصداقًا لقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ ﴾ (البقرة: ١٥٥).

وهناك يكونُ الصَّبْرُ والرِّضا هما المِقياسُ الحقيقيُّ للإيمانِ الصَّادقِ.

الثاني: الابتلاءُ بالخير. وهو مَناطُ الشُّكْرِ، وهذا النَّوعُ يَشْمَلُ الابتلاءَ بالصِّحَّةِ، والجاهِ، والمالِ، وأنواعِ المَلَاذِّ المُباحةِ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «بالرَّخاءِ والشِّدَّةِ، وكلاهما بلاءٌ»[١].

وفي روايةٍ عنه: «نبتليكم بالشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والصِّحةِ والسُّقْمِ، والغِنى والفَقْرِ، والحلالِ والحرامِ، والطَّاعةِ والمعصيةِ، والهُدَى والضَّلالةِ»[٢].

وقال ابنُ زيد رحمه الله: «نبلوهم بما يُحِبُّون وبما يكرهون، نختبرهم بذلك كيف شكرُهم فيما يُحِبُّون، وكيف صبرُهم فيما يكرهون»[٣].

وقال -تعالى-: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٨).

قال ابنُ جرير رحمه الله: «يقولُ: واختبرناهم بالرَّخاءِ في العَيْشِ، والخَفْضِ في الدُّنيا، والدَّعَةِ والسَّعَةِ في الرِّزْقِ، وهي الحسناتُ الَّتي ذكرها ـ جلَّ ثناؤُهُ ـ. ويعني بالسَّيِّئات:

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١٧/ ٢٤).
(٢) المصدر السَّابق (١٧/ ٢٥).
(٣) المصدر السَّابق (١٧/ ٢٥).

الشِّدَّةَ في العَيْشِ والشَّظَفَ فيه، والمصائبَ والرَّزايا في الأموالِ»[١].

قال عَبدُ الملك بنُ إسحاق رحمه الله: «ما مِنَ النَّاسِ إلَّا مُبْتَلًى بعافيةٍ؛ لِيُنْظَرَ كيف شكرُهُ، أو بَليَّةٍ؛ ليُنْظَرَ كيف صَبْرُهُ»[٢].

وصَبْرُ الإنسانِ على الملاذِّ المُباحةِ يكونُ بألَّا يركنَ إليها، ولا يغترَّ بها، ولا تَحْمِلُهُ على البَطَرِ والفَرَحِ المذموم، وألَّا يَنْهَمِكَ في نَيْلها، فتنقلبَ إلى أضدادِها، فمن بالغ في الأَكْلِ ـ مثلًا ـ حُرِمَهُ، وألَّا يُضَيِّعَ حقَّ الله فيها فَيُسْلَبَها، وألَّا يُمكِّن نَفْسَهُ من كُلِّ ما تريدُهُ منها، فتُوقِعَهُ في الحرام، فإنِ احترز كُلَّ الاحتراز، أوقعتْهُ في المكروه.

والصَّبْرُ على السَّرَّاءِ أَشَدُّ من الصَّبْرِ على الضَّرَّاءِ؛ لأنَّه مَقْرونٌ بالقُدْرة، والجائعُ عِنْدَ غَيْبةِ الطَّعام أقدرُ منه على الصَّبْرِ عِنْدَ حضورِه؛ لهذا كان أكثرَ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ المساكينُ؛ لأنَّ فتنةَ الفَقْرِ أَهْوَنُ من فِتنة الغِني.

قال بعض السلف: «البَلاءُ يَصْبِرُ عليه المُؤْمِنُ والكافِرُ، ولا يَصْبِرُ على العافيةِ إلَّا الصِّدِّيقون»[٣].

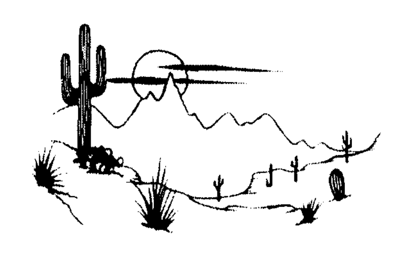
وقال عَبدُ الرحمن بنُ عوف رضي الله عنه: «ابْتُلينا مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ بالضَّرَّاءِ فصبرنا، ثُمَّ ابْتُلينا بَعْدَهُ بالسَّرَّاءِ فلمْ نَصْبِرْ»[٤].

وكُلٌّ من السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ يحتاجُ إلى الصَّبْرِ والشُّكْرِ، لكن لَمَّا كان في السَّرَّاءِ اللَّذَّةُ، وفي الضَّرَّاءِ الألمُ؛ اشتهر الشُّكرُ في السَّرَّاءِ، والصَّبْرُ في الضَّرَّاءِ.

وفِتنةُ الضَّرَّاءِ هي الظَّاهرةُ اليَوْمَ في شكاوي الخَلْقِ، أمَّا فتْنةُ السَّرَّاءِ فَغَفَلَت

(١) المصدر السَّابق (٩/ ١٠٤).
(٢) أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٤٤٩١) عن بشر بن الحارث رضي الله عنه، وابنُ أبي الدُّنيا في «الشُّكْر» (ص ١٣٢) وأورد ابنُ القيِّم في «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٢١٣).
(٣) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٠٢)، ونَحْوُهُ في «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٢٧٠).
(٤) أخرجه التِّرْمذيُّ (٢٤٦٤)، وحسَّنه.

النُّفوسُ البشريَّةُ عنها، فالكثيرُ الآنَ لا يَصْبرُ على النِّعَم، وينسى شُكْرَها قولًا وَفِعْلًا، وإن شكرها شكر بلسانِهِ دُونَ جميع أعضائِهِ، فمثلُهُ كمثلِ رجلٍ له كساءٌ، فأخذ بطَرَفِهِ ولم يَلْبَسْهُ، فما ينفعُهُ ذلك من الحرِّ والبَرْدِ، والثَّلْجِ والمَطَرِ؟!.



فَوائِدُ الابتلاءِ وَحِكَمُهُ

إنَّ اللهَ ـ تعالى ـ لا يَقْضي شيئًا ـ كَوْنًا ولا شَرْعًا ـ إلَّا وفيه حِكَمٌ بالغةٌ، تَعْجَزُ عقولُنا عن إدراكِها كُلِّها.

وفي الابتلاءِ فوائدُ سَنِيَّةٌ، وحِكَمٌ رَبَّانيَّةٌ، منها ما ظهر بالاستقراءِ، وعُلِمَ بَعْضُ ما فيه من النَّعْماءِ، ومنها ما لم يظهرْ، لكنِ ادَّخَرَ اللهُ به فضلًا غزيرًا.

قال الله -تعالى- : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وقال -تعالى-: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾. (النساء: ١٩).

ومنْ فوائدِ الابتلاءِ :

١ ـ النَّظَرُ إلى قَهْرِ الرُّبُوبيَّةِ، والرُّجوعُ إلى ذُلِّ العُبُوديَّةِ:

فإنَّهُ ليس لأحدٍ مفرٌّ عن أمْرِ اللهِ وقضائِهِ، ولا محيدَ لَهُ عَنْ حُكْمِهِ النافذِ وابتلائِهِ، إنَّا للهِ يتصرَّفُ فينا كما يشاءُ، وإنَّا إليه راجعون.

٢ ـ حُصُولُ الإخلاصِ في الدُّعاءِ، وصِدْقِ الإنابةِ إلى اللهِ ـ تعالى ـ والالتجاءِ:

قال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ رحمه الله: «ينْزِلُ البلاءُ؛ ليُسْتخرجَ به الدُّعاءُ»[1].

وقال سُفيانُ بْنُ عُيَيْنَةَ رحمه الله: «ما يَكْرَهُ العَبْدُ خيرٌ له مِمَّا يُحِبُّ؛ لأنَّ ما يكرهُهُ يُهيِّجُهُ للدُّعاءِ، وما يُحِبُّ يُلْهيهِ»[2].

---

(١) «الشُّكر» لابن أبي الدُّنيا (ص ١٣٢).
(٢) «الفَرَجُ بَعْدَ الشِّدَّة» لابن أبي الدُّنيا (ص ٢٢).

وقال بعض السلف: «سُنَّةُ اللهِ استدعاءُ عبادِهِ لعبادتِه بسَعَةِ الأرزاق، ودَوام المُعافاة؛ ليرجعوا إليه ـ سبحانهُ ـ بنعمتِهِ، فإذا لم يفعلوا ابتلاهم بالبَأْساءِ والضَّرَّاءِ؛ لعَلَّهم إليه يرجعون»[١].

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٢).

قال ابنُ جرير رَحِمَهُ اللهُ **في تفسير هذه الآية:** «فامتحنَّاهم ﴿ بِٱلْبَأْسَآءِ ﴾، وهي: شدَّةُ الفَقْرِ والضِّيق في المعيشةِ، ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾، وهي: الأسقامُ والعِلَلُ العارضةُ في الأجسام؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ يقولُ: فعلنا ذلك بهم؛ ليتضرَّعوا إليَّ، ويُخلصوا لِيَ العبادةَ، ويُفردوا رَغْبَتَهُمْ إليَّ دُونَ غيري بالتَّذلُّلِ منهم لي بالطَّاعةِ، والاستكانةِ منهم إليَّ بالإنابة»[٢].

قال الشَّيخ تقيُّ الدِّين رَحِمَهُ اللهُ: «مِنْ تمام نعمةِ اللهِ على عبادِهِ المؤمنين: أنْ يُنزِلَ بهم من الشِّدَّةِ والضُّرِّ ما يُلْجِئَهم إلى توحيدِهِ، فيدعونه مُخلصين له الدِّين، ويَرْجُونه ولا يَرْجُون أحدًا سواهُ، فتتعلَّقُ قُلُوبُهُم به لا بغيرِهِ، فيحصلُ لهم ـ من التَّوكُّلِ عليه، والإنابةِ إليه، وحلاوةِ الإيمانِ، وذَوْقِ طَعْمِه، والبراءةِ من الشِّرْكِ ـ ما هو أعظَمُ نعمةً عليهم من زوالِ المرضِ، والخوفِ، أوِ الجَدْبِ، أو الضُّرِّ.

وما يحصلُ لأهلِ التَّوحيد المُخْلصين لله الدِّينَ فأعظمُ من أنْ يُعَبَّرَ عنه مقالٌ، ولكُلِّ مؤمنٍ من ذلك نصيبٌ بقَدْرِ إيمانِهِ؛ ولهذا قيل: يا بْنَ آدمَ، لقدْ بُوركَ لك في حاجةٍ أكثرتَ فيها من قَرْعِ باب سيِّدِك»[٣].

وقال سُفيانُ الثَّوريُّ: «لَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ على عَبْدٍ في حاجةٍ أَكْثَرَ من تَضَرُّعِهِ إليه فيها»[٤].

(١) «بَرْدُ الأكبادِ عند فَقْدِ الأولاد» (ص ١١٣).
(٢) «تفسير ابْنِ جرير» (٧/ ١٩٢).
(٣) «الآدابِ الشَّرْعيَّة» لابْن مُفْلح (٢/ ٢٩١-٢٩٢).
(٤) «الشكر» (ص ١٣٢)، و«تسلية أهل المصائب» (ص ١٧٢)، و«عُدَّة الصَّابرين» (ص ٢١٣).

٣ـ استخراجُ عُبُوديَّةِ الضَّرَّاءِ:

فإنَّ اللهَ ـ تعالى ـ يَبْتلي خَلْقَهُ، ويُقَلِّبُ الأحوالَ عليهم؛ لِيَسْتَخرجَ منهم عُبُوديَّةَ السَّرَّاءِ وهي الشُّكْرُ، وعُبُوديَّةَ الضَّرَّاءِ وهي الصَّبْرُ.

٤ـ تَكْفيرُ السَّيِّئاتِ ومَحْوِها:

فعن أبي سعيد الخُدريِّ وأبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**ما يُصيبُ المُسلمَ مِنْ نَصَبٍ**[١] **ولا وَصَبٍ**[٢]**، ولا هَمٍّ ولا حُزْنٍ، ولا أذىً ولا غَمٍّ ـ حتَّى الشَّوْكةِ يُشَاكُها**[٣] **ـ إلَّا كفَّر اللهُ بها من خطاياهُ**»[٤].

وفي هذا الحديث دلالةٌ على أنَّ المَرَضَ النَّفْسيَّ كالمرض البَدَنيِّ في تكفير السَّيِّئاتِ، حيثُ ذُكِرَ فيه المَكْروهُ الواردُ على القَلْبِ، وهو الهَمُّ والحُزْنُ والغَمُّ، فالهَمُّ يكونُ على مكروهٍ يُتوقَّعُ في المستقبلِ، يَهْتمُّ به القَلْبُ، والحُزْنُ على مكروهٍ ماضٍ من فوات مَحْبُوبٍ أو حصولِ مكروهٍ، إذا تذكَّرهُ أحدث له حُزْنًا، والغمُّ يكونُ على مكروهٍ حاصلٍ في الحالِ، يُوجبُ لصاحبِهِ الغَمَّ، وهذِهِ المكروهاتُ هي من أعظمِ أمراضِ القَلْبِ وأدوائِهِ[٥].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ما يَزَالُ البلاءُ بالمُؤْمنِ والمُؤْمنةِ في نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ومالِهِ؛ حتَّى يَلْقى اللهَ ـ تعالى ـ وما عليه خطيئةٌ**»[٦].

وعن جابرٍ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ دَخَلَ على أُمِّ السَّائبِ ـ أو أُمِّ المُسَيَّبِ ـ، فقال:

---

(١) النَّصَب: كالتَّعَب زِنَةً ومعنًى.
(٢) الوَصَب: كالمَرَض زِنَةً ومعنًى.
(٣) يُشاكها أيْ: تَدْخُل في رِجْله.
(٤) رواه البُخاريُّ (٥٦٤١، ٥٦٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٧٣).
(٥) «شفاء العليل» لابن القيِّم (ص ٥٧٣).
(٦) رواه أحمدُ (٢/ ٢٨٧)، والتِّرْمذيُّ (٢٣٩٩)، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وكذا قال الألبانيُّ في «صحيح التِّرمذيِّ» (٢/ ٢٨٦).

«مَالَكِ تُزَفْزِفِينَ[١]؟». قالت: الحمَّى، لا بارك الله فيها!. فقال: «لا تَسُبِّي الحُمَّى؛ فإنَّها تُذْهِبُ خَطَايا بني آدمَ، كما يُذْهِبُ الكِيرُ[٢] خَبَثَ الحديدِ[٣]»[٤].

وعن أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أنه قال: يا رَسُولَ الله، كيف الصَّلاحُ بَعْدَ هذه الآيَةِ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: ١٢٣) الآية، وكُلُّ شيءٍ عملناهُ جُزينا به؟!.

فقال: «غَفَرَ اللهُ لك يا أبا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟، أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟، أَلَسْتَ يُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ[٥]؟». قال: بَلَى. قال: «هُوَ ما تُجْزَوْنَ به»[٦].

وقال الحَسَنُ البَصْرِيُّ رحمه الله: «كانوا يَرْجُونَ في حُمَّى لَيْلَةٍ كفَّارةً لما قَضَى من الذُّنُوبِ»[٧].

قال القرافيُّ رحمه الله: «المصائبُ كفَّاراتٌ جَزْمًا، سواءً اقترن بها الرِّضا أم لا، لكنْ إنِ اقترن بها الرِّضا عَظُمَ التَّكفيرُ، وإلَّا قَلَّ»[٨].

هذا وإنَّ كَثْرَةَ التكفيرِ وقِلَّتَهُ باعتبارِ شدَّةِ البَلاءِ وخِفَّتِهِ.

٥ ـ رَفْعُ الدَّرجات وزيادةُ الحسنات:

فعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما مِنْ مُسلمٍ يُشَاكُ شوكةً فما فَوْقَها، إلَّا كُتِبَتْ له بها دَرَجةٌ، ومُحِيَتْ عنه بها خَطِيئةٌ»[٩].

---

(١) الزَّفْزَفة: الرِّعْدةُ الَّتي تحصلُ للمحموم من البَرْد.
(٢) الكِير ـ بالكسر ـ: جِلْد غليظ يَنْفُخُ الحدَّادُ به النَّار.
(٣) خَبَثُ الحديدِ والفضَّة ـ بفتح الخاءِ والباءِ ـ: ما نَفَاهُ الكِيرُ إذا أُذيبا، وهو ما لا خَيْرَ فِيه.
(٤) رواه مسلم (٢٥٧٥).
(٥) اللأواء ـ بهمزة ساكنة بَعْدَ اللَّام المفتوحة، وهمزة في آخره ممدودة ـ: شدَّة الضِّيق.
(٦) رواه ابْنُ حبَّان في «صحيحه» (٧/ ١٧٠)، وصَحَّحَهُ الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٣٤٣٠).
(٧) رواه ابْنُ أبي الدُّنيا في «المرض والكفَّارات» (٤٠)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٣٤٤١).
(٨) «فتح الباري» (١١/ ٢٤٢).
(٩) رواه مسلم (٢٥٧٢).

وأكثرُ النَّاسِ اليَوْمَ لا يحتسبون الأَجْرَ إلَّا في المصائبِ الكبيرةِ، ونَسُوا ـ أو تناسَوْا ـ أنَّ كُلَّ ما ساءَ المَرْءَ ـ وإنْ صَغُرَ ـ فهو مُصيبةٌ، كما جاءَ عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه: أنَّهُ انقطع شِسْعُ[1] نَعْلِهِ، فاسترجع[2] وقال: «كُلُّ ما ساءكَ فَهُوَ مُصِيبةٌ»[3].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال:

«صُدَاعُ المُؤْمِنِ، أو شَوْكَةٌ يَشْتاكُها، أو شَيْءٌ يُؤْذِيهِ ـ يَرْفعُهُ اللهُ بها يومَ القيامةِ دَرَجةً، ويُكَفِّرُ عنه بها ذُنُوبَهُ»[4].

وعن مُحمَّدِ بنِ مُعاذِ بنِ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ عن أبيه عن جدِّهِ: أنَّهُ قال: يا رسولُ اللهِ، ما جَزَاءُ الحُمَّى؟.

قال: «**تَجْرِي الحَسَناتُ على صاحِبِها ما اخْتَلَجَ**[5] **عليه قدمٌ، أَوْ ضَرَبَ عليه عِرْقٌ**».

قال أُبَيٌّ: اللهُمَّ إنِّي أسألك حُمَّى لا تَمْنَعُني خُرُوجًا في سَبيلِكَ، ولا خُرُوجًا إلى بَيْتِكَ، ولا مَسْجِدِ نَبِيِّكَ.

قال: «فَلَمْ يُمَسَّ أُبَيٌّ ـ قطُّ ـ إلَّا وَبِهِ حُمَّى»[6].

وقال أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه:

«ما مِنْ مَرَضٍ يُصيبُني أَحَبُّ إليَّ مِنَ الحُمَّى؛ لأَنَّها تدخُلُ في كُلِّ عُضْوٍ منِّي، وإنَّ اللهَ يُعْطي كُلَّ عُضْوٍ قِسْطَهُ مِنَ الأَجْرِ»[7].

---

(١) الشِّسْعُ ـ بالكسر ـ: أَحَدُ سُيُورِ النَّعْلِ، وهو الَّذي يَدْخُلُ بَيْنَ الأُصْبَعيْنِ.

(٢) استرجع: قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

(٣) «الفتوحات الرَّبَّانيَّة» (٤/ ٢٩)، و«تاريخ عمر» (٢١٢).

(٤) رواه ابْنُ أبي الدُّنيا في «المرض والكفَّارات» (ص١٤٤)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٣٤٣٤).

(٥) اختلج: تحرَّك واضطرب.

(٦) رواه الطَّبرانيُّ في «الكبير» (١/ ٢٠٠)، و«الأوسط» (١٠/ ٢٧٧)، وحسَّنه الدِّمْياطيُّ في «المتجر الرَّابح» (ص ٦٢٢)، وابْنُ حَجَرٍ في «الإصابة» (١/ ٢٧)، والألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٣٤٤٤)، وقال: حَسَنٌ لغَيْرِه.

(٧) رواهُ البُخاريُّ في «الأدب المُفرد» (٥٠٣)، وصحَّح سندَهُ ابْنُ حجرٍ في «الفتح» (١٠/ ١١٠).

قال ابن حجر رحمه الله:

«وَمِثْلُ هذا لا يَقُولُهُ أبو هُرَيْرَةَ برَأْيِهِ»[١].

ولهذا قال بعضُ السَّلف:

«لَوْلَا مَصائِبُ الدُّنيا لوَرَدْنا الآخرة مَفاليسُ»[٢].

والمريضُ يُكْتَبُ له ما كان يَعْملُ مِنَ النَّوافلِ في حالِ الصِّحَّةِ.

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا مَرِضَ العَبْدُ، أو سافر، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ ما كان يعملُ مُقيمًا صحيحًا**»[٣].

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا ابْتلَى اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ العَبْدَ المُسْلِمَ ببلاءٍ في جَسَدِه، قال اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لِلْمَلَك: اكتبْ له صالحَ عَمَلِهِ الَّذي كان يعملُ، وإنْ شَفَاهُ غَسَّلَهُ وطَهَّرَهُ**[٤]**، وإنْ قَبَضَهُ غَفَرَ له ورَحِمَهُ**»[٥].

ورُبَّما كانتْ للعَبْد منزلةٌ عند الله ـ تعالى ـ، يَعْجَزُ عَنْ بُلُوغِها بعَمَلِهِ، فيبتليهِ اللهُ بما يَكْرَهُ؛ حتَّى يُؤَهِّلَهُ لها، ويُبَلِّغَهُ إيَّاها.

فعن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الرَّجُلَ لَيكونُ له المنزلةُ عِنْدَ اللهِ، فما يَبْلُغُها بعملٍ، فلا يزالُ اللهُ يَبْتليهِ بما يَكْرَهُ؛ حتَّى يُبَلِّغَهُ إيَّاها**»[٦].

وفي روايةٍ: «**إنَّ العَبْدَ لَيكونُ له عِنْدَ اللهِ المنزلةُ الرَّفيعةُ، ما ينالُها بعملٍ، فما يزالُ ...**» الحديث[٧].

---

(١) «الفتح» (١٠/ ١١٠).

(٢) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٤٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٩٩٦)، وأبو داوُدَ (٣٠٩١).

(٤) قال القاري: «غسَّله» ـ بالتَّشديد ويُخَفَّفُ ـ أَيْ: نظَّفه، و«طَهَّره» من الذُّنُوب؛ لأنَّ المرض كفَّرها». «مرقاة المفاتيح» (٤/ ٣٨).

(٥) رواه أحمدُ (٣/ ١٤٣)، وقال الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب والتَّرهيب» (٣٤٢٢): حَسَنٌ صحيحٌ.

(٦) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٦٠٩٥)، وابْنُ حبَّان (٦٩٣ - موارد)، والحاكم (١/ ٣٤٤) وصحَّحه، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٦٢٥).

(٧) «مسند أبي يعلى» (٦١٠٠).

هذا وَلْيَعْلَم المُصابُ أنَّ رَفْعَ الدَّرجاتِ وزيادةَ الحسناتِ لا يحصلُ إلَّا مع الصَّبْرِ والاحتسابِ، لا بمجرَّد المُصيبة.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة رحمه الله: «المصائبُ الَّتي تَجْري بلا اختيار العَبْدِ: كالمَرَض، وموتِ العزيزِ عليه، وأَخْذِ اللُّصُوصِ مالَهُ ـ إنَّما يُثَابُ على الصَّبْرِ عليها، لا على نَفْسِ ما يحدثُ مِنَ المُصيبَةِ، لكن المُصيبة يكفّر بها خطاياهُ؛ فإنَّ الثّواب إنَّما يكونُ على الأعمالِ الاختياريَّة، وما يتولَّدُ عنها»[1].

وقال ابنُ عبد السّلام:

«الثَّواب إنَّما يكونُ على فِعْلِ العَبْدِ، لا على فِعْلِ الله فيه؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة: ١٥٦ - ١٥٧)، فما حصل لهم من صلاة الله عليهم، ورحمتِهِ لهم، وهدايتِهِ إيَّاهم بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾، فالاسترجاعُ هو سَبَبٌ في حصول ما ذُكِرَ»[2].

وإنْ حصل مع الصبر على المُصيبةِ رضًا وشكرٌ، فإنَّه أعظمُ للأجر.

وأمَّا إن حصل للمصاب ضِدُّ الصَّبْرِ ـ وهو الجَزَعُ والتَّسخُّط والتَّشكِّي ـ فإنَّ هذا لا يُؤْجَرُ، بل يأثم؛ لقولِهِ ﷺ:

«إنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاءِ، وإنَّ الله ـ تعالى ـ إذا أحبَّ قومًا ابْتَلَاهُمْ فمن رضي فله الرِّضا، ومن سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[3].

---

(١) «الفتاوى» (١٠/ ١٢٤)، وذكر نَحْوَهُ ابْنُ القَيِّم في «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٣٧-١٣٨، ١٥٢).
(٢) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (١/ ١٢٦).
(٣) أخرجه التِّرْمذيُّ (٢٣٩٦)، وابْنُ ماجَهْ (٤٠٣١) من حديث أَنَسٍ، وحسَّنه التِّرمذيُّ والألبانيُّ في «صحيح التِّرمذيِّ» (٢/ ٢٨٦)، وفي «صحيح الجامع» (٢١١٠).

قال المباركفوري رحمه الله:

(«**وَمَنْ سَخِطَ**» أَيْ: كَرِهَ بلاءَ اللهِ وفَزِعَ، ولم يَرْضَ بقضائه، «**فَلَهُ السُّخْطُ**» منه ـ تعالى ـ وأليمُ العذابِ)[١].

٦ ـ دُخولُ الجنَّة:

فعن أنس رضي الله عنه **قال**: قال رسولَ الله ﷺ: «**ما مِنَ النَّاسِ مُسْلمٌ يَمُوتُ له ثلاثةٌ مِنَ الوَلَدِ لم يَبْلُغوا الحِنْثَ**[٢] **ـ إلَّا أدخله الله الجنَّةَ بفَضْلِ رَحْمَتِه إيَّاهُم**»[٣].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**يقولُ الله ـ تعالى ـ: ما لعبدي المُؤْمِنِ عندي جزاءٌ، إذا قبضتُ صَفِيَّهُ**[٤] **من أهْلِ الدُّنيا، ثُمَّ احتسبه**[٥] **ـ إلَّا الجنَّةُ**»[٦].

وعَنْ قُرَّةَ بن إياسٍ رضي الله عنه **قال**: كان نبيُّ الله ﷺ إذا جَلَسَ يَجْلِسُ إليه نَفَرٌ من أصحابه، وفيهم رَجُلٌ له ابْنٌ صغيرٌ يأتيه من خَلْفِ ظَهْرِهِ، فيُقْعِدُهُ بَيْنَ يديه، إلى أنْ هلك الصَّبيُّ،

---

(١) «تُحفة الأحوذيِّ» (٧/ ٧٧).

(٢) الحِنْث ـ بالكَسْر ـ في الأَصْل: الذَّنْبُ، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ (الواقعة: ٤٦).
قالَ الحافظ: «قالَ الرَّاغبُ: عَبَّر بالحِنْثِ عن البلوغ؛ لما كان الإنسانُ يُؤاخَذُ بما يَرْتكبُهُ فيه بخلاف ما قَبْلَهُ، وخَصَّ الإثْمَ بالذِّكْر؛ لأنَّهُ الَّذي يحصلُ بالبلوغ؛ لأنَّ الصَّبيَّ قدْ يُثابُ، وخَصَّ الصَّغيرَ بذلك؛ لأنَّ الشَّفقةَ عليه أعظمُ، والحُبَّ له أشدُّ، والرَّحمةَ له أوْفَرُ، وعلى هذا فَمَنْ بلغ الحِنْثَ لا يحصلُ لمَنْ فَقَدَهُ ما ذكر من الثَّواب، وإنْ كان في فَقْدِ الوَلَدِ أجْرٌ في الجُمْلة، وبهذا صَرَّح كثيرٌ من العلماء، وفرَّقوا بَيْنَ البالغ وغَيْرِه بأنَّه يُتَصَوَّرُ منه العُقُوق المُقْتَضي لِعَدَم الرَّحمة، بخلاف الصَّغير فإنَّه يُتصوَّرُ منه ذلك؛ إذْ ليس بمُخاطب.
وقال الزين بْنُ المُنَيِّر: بل يدخلُ الكبيرُ في ذلك من طريق الفَحْوَى؛ لأنَّه إذا ثَبَتَ ذلك في الطِّفْل الَّذي هو كَلٌّ على أبَوَيْه، فكيف لا يثبتُ في الكبير الَّذي بلغ معه السَّعْيَ، ووصل له منه النَّفْعُ، وتوجَّهَ إليه الخطابُ؟!.
قال: ولعلَّ هذا هُوَ السِّرُّ في إلغاء البُخاريِّ التَّقْييدَ بذلك في التَّرْجمة». «الفتح» (٣/ ٤٥٧-٤٥٨).

(٣) رواه البخاريُّ (١٢٤٨).

(٤) صَفِيُّ الإنسان: الَّذي يُصافيه الوُدَّ والحُبَّ، ويُخْلصُهُ له: كالوَلَد، والأَخ، وكُلِّ مَنْ يُحبُّهُ الإنسانُ.

(٥) احتسبه: صبر على فَقْده راجيًا الأجْرَ من الله على ذلك.

(٦) رواه البخاريُّ (٦٤٢٤).
استدلَّ ابْنُ بطال بهذا الحديث على أنَّ مَنْ مات له وَلَدٌ واحدٌ يلتحقُ بمَنْ مات له ثلاثةٌ، وكذا اثنان، قاله الحافظ، وقال: «ووَجْهُ الدلالَة من حديث الباب: أنَّ الصَّفيَّ أعمُّ من أن يكونَ ولدًا أم غَيْرَهُ، وقد أُفْرِدَ ورُتِّبَ الثَّوابُ بالجنَّة لمن مات له فاحتسبه». «الفتح» (١١/ ٢٤٢-٢٤٣).

فامتنع الرَّجلُ أنْ يَحْضُرَ الحَلْقَةَ؛ يذكرُ ابنَهُ ويحزنُ عليه، ففقده النَّبيُّ ﷺ، فقال: **«ما لي لا أَرَى فُلانًا؟»**.

فقالوا: يا رسولَ الله، بُنَيُّهُ الَّذي رَأَيْتَ هَلَكَ، فَمَنَعَهُ ذلك من حُضُور الحَلْقة، فَلَقِيَهُ النَّبيُّ ﷺ، فسأله عنه، فأخبره أنَّه قَدْ هلك، فعزَّاهُ[1] عليه، ثُمَّ قال: **«أيُّهما كان أحبَّ إليك: أنْ تُمَتَّعُ به عُمْرَكَ، أو لا تأْتيَ غدًا بابًا من أبوابِ الجنَّةِ إلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إليه يفتحُ لك؟»**.

فقال: يا نبيَّ الله، بل يَسْبِقُني إلى أبوابِ الجنَّةِ، فيفتحُها لي أحبُّ إليَّ، قال: **«فذلك لك»**.

قال: فقام رجلٌ من الأنصار، فقال: يا رسولَ اللهِ، جعلني اللهُ فِدَاكَ، هذا لفُلَانٍ خاصَّةً، أَوْ لِمَنْ هَلَكَ له فَرَطٌ[2] من المسلمين كان ذلك له؟.

قال: **«بَلْ كلُّ مَنْ هَلَكَ لَهُ فَرَطٌ من المسلمين كان ذلك له»**[3].

وعن أبي مُوسَى الأشعريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«إذا مات وَلَدُ العَبْدِ، قال اللهُ لملائكتِهِ: قبضتُمْ وَلَدُ عَبْدي؟، فيقولون: نَعَمْ، فيقولُ: قبضتُمْ ثَمرةَ فُؤَادِهِ؟ فيقولون: نَعَمْ، فيقولُ: ماذا قال عَبْدي؟، فيقولون: حَمِدَكَ واسْتَرْجَعَ، فيقولُ اللهُ، ابنُوا لعَبْدي بَيْتًا في الجنَّةِ، وسَمُّوهُ بَيْتَ الحَمْدِ»**[4].

---

(١) عَزَّاهُ: صَبَّرَهُ.

(٢) قال الشَّيخ علي القاري في «جمع الوسائل شرح الشَّمائل» (٢/ ٢٢٣): «الفَرَطُ: الوَلَدُ الَّذي مات قبل أَحَدِ أبويه، فإنَّه يُهَيِّئ لهما نُزُلًا ومنزلًا في الجنَّة، كما يتقدَّمُ فَرَطُ القافلةِ إلى المنزل، فَيُعِدُّ لهم ما يحتاجون إليه من سَقْيِ الماء، وضَرْبِ الخَيْمة، ونَحْوهما».

(٣) أخرجه أحمدُ (٥/ ٣٤-٣٥) و(٣/ ٤٣٦)، والنَّسائيُّ (١٨٧١)، والطَّبرانيُّ في «الكبير» (١٩/ ٢٦) واللَّفظُ له، والحاكم (١/ ٣٨٤)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ في «التَّلخيص»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٩٦٣)، وفي «صحيح النَّسائيِّ» (٢/ ٤٠٤).

(٤) أخرجه أحمدُ (٤/ ٤١٥)، والتِّرْمذيُّ (١٠٢١)، والبَغَويُّ في «شرح السُّنَّة» (١٥٤٩)، وابْنُ حبَّان (2948 - الإحسان)، وحسَّنه الألبانيُّ في «الصحَّيحة» (١٤٠٨) بمجموع طُرُقه.
قُلْتُ: وهذا الحديث والَّذي قَبْلَهُ ممَّا يُستدل بهما ـ أيضًا ـ على أنَّ مَنْ مات لَهُ واحدٌ يَلْتحقُ بمَنْ مات له أكثرُ.

وعن أبي حَسَّانَ قال: قُلْتُ لأبي هُرَيْرَةَ: إنَّه قَدْ ماتَ لي ابنانِ، فما أنت مُحدِّثي عن رسولِ اللهِ ﷺ بحديثٍ تُطيِّبُ به أنفُسَنا عن مَوْتانا؟.

قال: نَعَمْ «**صِغَارُهُمْ[١] دَعاميصُ[٢] الجنَّةِ، يتلقَّى أَحَدُهُمْ أَباهُ ـ أَوْ قال: أَبَوَيْهِ ـ فيأخذُ بثَوْبِهِ ـ أو قال: بيَدِهِ ـ كما آخُذُ أنا بصَنِفَةِ ثَوْبِكَ[٣] هذا، فلا يَتناهَى[٤] ـ أو قال: فلا يَنْتهي ـ حتَّى يُدْخِلَهُ اللهُ وأباهُ الجنَّةَ**»[٥].

وعَنْ مُعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «**والَّذي نَفْسي بيَدِهِ، إنَّ السِّقْطَ لَيجرُّ أُمَّهُ بسَرَرِهِ إلى الجنَّةِ، إذا احْتَسَبَتْهُ**»[٦].

وعن أَنسٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ قال: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدي بحبيبتَيْهِ، فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ منهما الجنَّةَ**»[٧]. يُريدُ: عَيْنَيْهِ.

وعن عَطَاءٍ قال: قال لي ابْنُ عَبَّاسٍ: أَلَا أُريكَ امرأةً من أَهْلِ الجنَّةِ؟.

قُلْتُ: بَلَى. قال: هذِهِ المرأةُ السُّوداءُ أَتَتِ النَّبيَّ ﷺ، فقالتْ: إنِّي أُصْرَعُ، وإنِّي أتكشَّفُ، فادْعُ اللهَ لي.

قال: «**إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ ولَكِ الجنَّةُ، وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعافِيَكِ**».

فقالتْ: أَصْبِرُ. فقالتْ: إنِّي أتكشَّفُ، فادْعُ اللهَ لي أَلَّا أتكشَّفَ. فدعا لها[٨].

---

(١) صغارهم أَيْ: صغار أَهْلِها.
(٢) الدَّعاميص: واحدُهم دُعْمُوصٌ ـ بزنَة عُصْفُورٍ ـ، وهي دُوَيْبَّةٌ تكونُ في الماءِ لا تُفارقُهُ، أَيْ: أَنَّ هؤلاءِ الصِّغار يلعبون في أنهار الجنَّة لا يُفارقونها.
(٣) صَنِفَة الثَّوْبِ ـ بفتح الصَّادِ وكَسْرِ النُّونِ ـ: طَرَفه وجانبه.
(٤) فلا يتناهى أَيْ: فلا يتركُهُ.
(٥) رواه مسلم (٢٦٣٥).
(٦) رواه ابنُ ماجَهْ (١٦٠٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح ابنِ ماجَهْ» (٢/ ٤٦).
(٧) رواه البخاريُّ (٥٦٥٣).
(٨) رواه البخاريُّ (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

٧ـ النَّجاةُ من النَّارِ:

فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا يَمُوتُ لمسلمٍ ثلاثةٌ من الوَلَدِ، فَيَلِجَ**[١] **النَّارَ إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ**[٢]»[٣].

وعنه -أيضًا- قال: أَتَتِ امرأةٌ النَّبيَّ ﷺ بصبيٍّ لها، فقالتْ: يا نبيَّ اللهِ، ادْعُ اللهَ له، فَلَقَدْ دَفَنْتُ ثلاثةً.

قال: «**دَفَنْتِ ثَلاثَةً؟**».

قالتْ: نَعَمْ.

قال: «**لَقَدِ احْتَظَرتِ بحِظَارٍ**[٤] **شديدٍ من النَّارِ**»[٥].

---

(١) يلج: يدخل، وبابُهُ وَرَدَ، وَلِجَةً -أيضًا-.

(٢) تَحِلة القَسَم: ما كُفِّرَ به، وقولهُم: فَعَلْتُهُ تَحِلَّةَ القَسَمِ أَيْ: لم أَفْعَلْ إلَّا بمقدار ما حَلَّلْتُ به قسمي، ولم أبالِغْ.

قال أبو عُبَيدٍ وجمهورُ العُلَماءِ: المُرادُ بتَحِلَّة القَسَم: قولُهُ -تعالى-: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ (مريم: ٧١).

ويَدُلُّ عليه ما وقع عند الطيالسيِّ قال الزُّهْريُّ: كأنَّه يُريدُ هذه الآيةَ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾.

وما عند عبد الرَّزَّاق عن الزُّهْريِّ في آخرِ هذا الحديثِ: «إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ» يَعْني: الوُرُودَ.

وفي «سنن سعيد»: أنَّ سُفيانَ بْنَ عُيَيْنَةَ قرأ عَقِبَ هذا الحديثِ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾.

واخْتُلِفَ في موضع القسم من الآيةِ: فقيل: هو مُقَدَّرٌ أيْ: واللهِ إنْ منكم إلا واردُها، وقيل: معطوفٌ على القَسَم الماضي في قوله -تعالى-: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ (مريم: ٦٨). أيْ: وربِّك إنْ منكم، وقيل غَيْرُ ذلك.

واختلف السَّلَفُ -أيضًا- في المراد بالوُرُود في الآيةِ على أقوالٍ، أصَحُّهَا قولانِ:

الأوَّل -الدُّخول، فلا يَبْقَى بَرٌّ ولا فاجرٌ إلَّا دَخَلَها، فتكونُ على المؤمنين بَرْدًا وسلامًا.

الثَّاني -المُرُور على الصِّراط، وهو جسْرٌ منصوب عليها.

ولا تَنافيَ بَيْنَ هذَيْنِ القَوْلَيْنِ؛ لأنَّ مَنْ عَبَّرَ بالدُّخول تجوَّز به عن المرور، ووَجْهُهُ: أنَّ المارَّ عليها فوقَ الصِّراطِ في معنى مَنْ دخلها، لكن تختلفُ أحوالُ المارَّةِ باختلافِ أعمالهم، فأعلاهم دَرَجةً مَنْ يَمُرُّ كلَمْحِ البَرْقِ. انظر «الفتح» (٣/ ١٢٣-١٢٤).

(٣) رواه البخاريُّ (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢).

(٤) الحظيرة: تُعملُ للإبل من شجرٍ؛ ليقيهَا البَرْدَ والرِّيحَ، والاحتظارُ: فِعْلُ ذلك، أراد: لقد احتميتِ بحمىً عظيمٍ مِنَ النَّارِ، يَقيكَ حَرَّها، ويُؤَمِّنُك من دُخُولِها. انظر «الفائق في غريب الحديث» (١/ ٢٩٢).

(٥) رواه البخاريُّ (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أنَّ النِّساءَ قُلْنَ للنَّبيِّ ﷺ: اجْعَلْ لنا يومًا، فوعظهُنَّ وقال: «أيُّما امرأةٍ ماتَ لها ثلاثةٌ مِنَ الوَلَدِ كانوا حجابًا مِنَ النَّارِ».

قالتِ امرأةٌ: واثْنَانِ.

قال: «واثْنَانِ»[١].

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن رسولِ الله ﷺ: أنَّه عاد مريضًا ومعه أبو هُرَيْرَةَ مِنْ وَعْكٍ[٢] كان به، فقال رسولُ الله ﷺ: «أَبْشِرْ، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يَقُولُ: هي ناري أُسَلِّطُها على عَبْدي المُؤْمِنِ في الدُّنْيا؛ لتكونَ حَظَّهُ من النَّارِ في الآخِرَةِ»[٣].

٨ ـ الدُّخول في زُمْرةِ المحبوبين المُشرَّفين بمحبَّةِ ربِّ العالمين، وحُصُولُ رِضَى الله العَظِيمِ الَّذي هو أفضلُ من الجنَّةِ ونعيمِها المُقيم:

فَعَنْ أَنَس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[٤].

٩ ـ معرفةُ قَدْرِ العافيةِ لمن غَفَلَ عَنْ إحصاءِ ذلك وعدِّهِ:

لأنَّ الشَّيءَ لا يُعْرَفُ إلَّا بضدِّهِ، فيحصلُ بذلك الشُّكْرُ المُوجِبُ للمزيدِ مِنَ النِّعَمِ؛ لأنَّ ما وسَّع اللهُ بالعافيةِ وأنعم، أكثرُ وأعظمُ ممَّا ابْتَلى وأسْقَمَ[٥].

لا يَعْرِفُ المَرْءُ ـ إذا لَمْ يُصَبْ بِنَكْبَةٍ[٦] ـ ما موقعُ العافِيَهْ[٧]

(١) رواه البخاريُّ (١٢٤٩)، ومسلم (٢٦٣٣).
(٢) الوَعْك ـ بالفتح ـ: الحُمَّى، وقيل: وَجَعُها.
(٣) أخرجه أحمدُ (٤/ ٤٤٠)، وابنُ ماجَهْ (٣٤٧٠)، والحاكم (١/ ٣٤٥)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٥٥٧).
(٤) تقدَّم تخريجُهُ.
(٥) «بَرْدُ الأكباد» (ص ١١٤).
(٦) النَّكبة ـ بالفتح ـ: المُصيبة مِنْ مصائب الدَّهرِ، وإحدى نَكَباتِهِ.
(٧) «جنَّة الرِّضا» (٢/ ١٣٩).

١٠ ـ حُصُولُ رَحْمةِ أَهْلِ البَلاءِ المُوجبةِ لرحمةِ اللهِ وجَزيلِ العَطاءِ:

عَنِ ابنِ عُمرو رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «الرَّاحمون يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارحُموا مَنْ في الأَرْضِ، يَرْحَمْكُمْ مَنْ في السَّماءِ»(١).

١١ ـ تيقُّظُ المُصابِ من غَفْلَتِهِ، وطيبُ نَفْسِهِ ببرِّهِ، وإخراجِ صدقتِهِ:

قال الفضلُ بنُ سَهلٍ ذُو الرِّيا ستين:

«إنَّ في العِلَلِ لَنِعمًا يَنْبغي للعُقَلاءِ أنْ يَعْرِفوها: تَمْحيصٌ(٢) للذُّنُوبِ، وتَعَرُّضٌ لثوابِ الصَّبْرِ، وإيقاظٌ من الغَفْلَةِ، وَإِذْكَارٌ للنِّعمةِ في حالِ الصِّحَّةِ، واستدعاءٌ للعُقُوبةِ، وحَضٌّ على الصَّدَقةِ، وفي قَضاءِ اللهِ ـ تعالى ـ خَيْرٌ(٣) بَعْدَ الخيارِ»(٤).

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَةَ رحمه الله:

«مُصيبةٌ تُقْبلُ بها على اللهِ خيرٌ لك من نعمةٍ تُنسيك ذِكْرَ اللهِ»(٥).

١٢ ـ طَهَارةُ العَبْدِ مِنَ الأَمْراضِ القَلْبِيَّةِ:

قال ابنُ القَيِّمِ رحمه الله: «لَوْلا مِحَنُ الدُّنيا ومصائبُها لأصابَ العَبْدَ ـ مِنْ أَدْواءِ الكِبْرِ والعُجْبِ والفَرْعَنةِ وقَسْوَةِ القَلْبِ ـ ما هو سَبَبُ هلاكِهِ عاجلًا وآجلًا، فمن رحمةِ أرحمِ الرَّاحمين أنْ يتفقَّدَهُ في الأحيانِ بأنواعٍ مِنْ أَدْوِيةِ المصائبِ؛ تكونُ حِمْيَةً له مِنْ هذهِ الأَدْواءِ، وحِفْظًا لصحَّةِ عُبُوديَّتِهِ، واستفراغًا للموادِّ الفاسدةِ الرَّديئةِ المُهْلكةِ منه، فَسُبْحانَ مَنْ يَرْحَمُ ببلائِهِ، ويَبْتلي بنَعْمائِهِ، كما قيل:

قَدْ يُنْعِمُ اللهُ بالبَلْوَى وإنْ عَظُمَتْ ... ويَبْتَلي اللهُ بَعْضَ القَوْمِ بالنِّعَمِ

---

(١) رواه أحمدُ (٢/ ١٦٠)، وأبو داوُدَ (٤٩٤١)، والتِّرْمذيُّ (١٩٢٤)، والحاكم (٤/ ١٥٩)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٥٢٢).

(٢) التَّمحيص: التَّخليص والتَّطهير.

(٣) لعلَّ كلمة «خير» سَقَطتْ منَ الأَصْلِ فأضفناها؛ ليستقيمَ المعنى.

(٤) «بَرْدُ الأكباد» (ص ١١٦-١١٧).

(٥) «تسلية أهْلِ المصائب» (ص ٢٢٦).

فَلَوْلا أنَّه ـ سبحانَهُ ـ يُداوي عبادَهُ بأَدْوِيةِ المِحَنِ والابتلاءِ، لطَغَوْا وبَغَوْا وعَتَوْا، واللهُ ـ سبحانَهُ ـ إذا أراد بعبدٍ خيرًا، سقاه دواءً مِنَ الابتلاءِ والامتحانِ على قَدْرِ حالِه؛ يستفرغُ به من الأَدْواءِ المُهلكةِ، حتَّى إذا هذَّبه ونقَّاهُ وصفَّاهُ، أهَّلَهُ لأَشْرفِ مَراتبِ الدُّنيا، وهي عُبُودِيَّتُهُ، وأرْفَعِ ثوابِ الآخِرَةِ، وهو رُؤْيتُهُ وقُرْبُهُ»[1].

١٣ ـ أنَّهُ عَوْنٌ على مُقارعةِ الدَّهْرِ:

قال الماوَرْدِيُّ في سياق كلامه عن أسباب تسهيل المصائب وتخفيف الشَّدائد:

«ومنها ما يعتاضُهُ مِنْ الإرتياضِ بنوائبِ عَصْرِه، ويستفيدُهُ من الحُنْكَةِ ببلاءِ دَهْرِه، فيصلُبُ عُودُهُ، ويستقيمُ عمودُهُ، ويكمل بأذى شِدَّتِهِ ورضائِهِ، ويتَّعظُ بحالَتَيْ عَفْوِهِ وبلائِهِ»[2].

١٤ ـ تطهيرُ صفِّ المُؤْمنين من المُنافقين الَّذين لَبِسُوا لبوسَ المُؤْمنين، وتمييزُ البرِّ من الفاجرِ:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

(العنكبوت: ١٠-١١).

وقال شُمَيْطُ بنُ عَجْلانَ رحمه الله:

«إنَّ العافيةَ سَتَرَتِ البَرَّ والفاجرَ، فإذا جاءتِ البلايا، استبان عندها الرَّجُلانِ، فجاءت البلايا إلى المُؤْمنِ، فأذهبتْ مالَهُ وخادمَهُ ودابَّتَهُ، حتَّى جاع بَعْدَ الشِّبَعِ، ومَشَى بَعْدَ الرُّكوبِ، وخَدَمَ نَفْسَهُ بَعْدَ أنْ كان مخدومًا، فَصَبَرَ ورَضِيَ بقضاءِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، وقال: هذا نظر من اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، هذا أَهْوَنُ لحسابي غدًا.

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٩٥).
(٢) «أدب الدُّنيا والدِّين» للماوَرْدِيِّ (ص ٢٩٥).

وجاءتِ البلايا إلى الفاجر، فأذهبتْ مالَهُ وخادمَهُ ودابَّتَهُ، فجزع وهَلعَ، وقال: واللهِ، مالي بهذا طاقةٌ، واللهِ، لقدْ عوَّدتُ نَفْسي عادةً، مالي عنها صبرٌ في الحُلْوِ والحامضِ، والحارِّ وَالباردِ، وَلِينِ العيشِ.

فإن هو أصابه من الحلالِ، وإلَّا طلبه في الحرام والظُّلْمِ؛ ليعودَ إلى ذلك العيشِ»[1].

١٥ ـ الزَّهادةُ في الدُّنيا، والرَّغبةُ في الآخرة:

قال ابْنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

«وَمِنْ رحمته ـ سبحانَهُ ـ بعبادِهِ أنْ نَغَّصَ عليهم الدُّنيا وكدَّرها؛ لئلَّا يسكنوا إليها، ولا يطمئنُّوا إليها، ورغبوا في النَّعيم المُقيم في دارِهِ وجوارِهِ، فساقهم إلى ذلك بسياطِ الابتلاء والامتحانِ، فمنعهم لِيُعطِيَهُمْ، وابتلاهم لِيُعافِيَهُمْ، وأماتهم لِيُحْيِيَهُمْ»[2].

وقال ابْنُ ناصرِ الدِّينِ الدِّمَشْقيُّ: «ومن فوائدِ الابتلاءِ: مَقْتُ الدُّنيا لأنكادِها، وبَعْثُ النَّفْسِ على العمل ليوم مَعادِها؛ فإنَّهُ إذا فكَّر في ذهابِ أحبابِهِ، عَلِمَ أنَّهم شربوا بكَأْسٍ لابُدَّ له من شرابِهِ»[3].

ومن خلالِ ما ذُكِرَ من فوائدِ الابتلاءِ وثمارِهِ يتبيَّنُ لنا جَليًّا أنَّ الابتلاءَ نعمةٌ وهبَةٌ ربَّانيَّةٌ من الرَّبِّ الرَّحيم ـ سبحانه ـ لعبدِهِ الفقيرِ المحتاجِ، عرَّضه للبَلَاءِ؛ لتتحقَّقَ لَهُ هذهِ الثَّمَراتِ، وإلَّا فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن تعذيبِهِ؛ ولهذا كانَ الصَّالحون يفرحون بالبلاءِ أشدَّ من فَرَحِ الواحدِ منَّا بالعطاءِ.

فعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً؟.

---

(١) «صفة الصَّفوة» لابن الجَوْزيِّ (٣/ ٣٤٦).
(٢) «إغاثة اللَّهفان» (٢/ ١٧٥).
(٣) «بَرْدُ الأكباد» (ص ١١٧).

قال: «**الأنبياءُ**». قلتُ: يا رسولَ الله، ثُمَّ مَنْ؟.

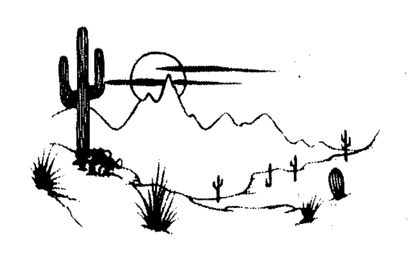
قال: «**ثُمَّ الصَّالحون، لقَدْ كان أَحَدُهم يُبْتَلَى بالفَقْرِ، حتَّى ما يَجِدُ إلَّا العَبَاءَةَ يَجُوبُها**[١] **فيلبَسُها، ويُبْتَلَى بالقَمْلِ**[٢] **حتَّى يقتُلَهُ، ولَأَحَدُهم كان أشدَّ فَرَحًا بالبَلَاءِ من أَحَدِكُمْ بالعطاءِ**»[٣].

وقال وَهبُ بنُ مُنَبِّه رحمه الله:

«لا يكونُ الرَّجلُ فقيهًا كاملَ الفِقْهِ حتَّى يُعِدَّ البلاءَ نِعْمةً، ويُعِدَّ الرَّخاءَ مُصيبةً؛ وذلك أنَّ صاحبَ البَلَاءِ ينتظرُ الرَّخاءَ، وصاحبَ الرَّخاءِ ينتظرُ البَلَاءَ»[٤].

قال الشاعر:

لا تَكْرَهِ المَكْرُوهَ عِنْدَ حُلُولِهِ ... إنَّ العواقِبَ لَمْ تَزَلْ مُتبايِنَهْ
كَمْ نِعْمةٍ لا تَسْتَقِلُّ[٥] بشُكْرِها ... لله في طَيِّ المكارِهِ كافِيَهْ[٦]



(١) يجوبها أَيْ: يقطعُ وَسَطَها ليلبسَها.
(٢) القَمْل ـ بالفتح ـ: هَوَامُّ الرَّأسِ، الواحدةُ قَمْلَةٌ.
(٣) رواه ابْنُ ماجَهْ (٤٠٢٤) بلَفْظِه، والحاكم (٤/ ٣٠٧) بنَحْوِه، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ، رحمه الله في «الصَّحيحة» (١٤٤)، و«صحيح الجامع» (٩٩٥).
(٤) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٥٠).
(٥) لا تستقلُ: لا تنهضُ.
(٦) «أدب الدنيا والدين» (ص٣٩٢).

هَلْ للمُسلم أنْ يَستدعي البَلاءَ على نفْسِه؟

تقدَّم أنَّ في المصائبِ والبلايا فوائدَ عظيمةً، وحِكَمًا جليلةً، فَهَلْ للمسلم أن يستدعيَ البَلاءَ على نفسِه تحصيلًا لهذِه الحِكَمِ والفوائدِ؟.

لا يجوزُ للمُسلم أن يسألَ اللهَ البلاءَ، وممَّا يَدُلُّ على ذلك هِجْرتُهُ ﷺ وهِجْرةُ أصحابِه الأُولى إلى الحَبَشَةِ، والثَّانيةُ إلى المدينة، حيثُ لم يَسْتَمرَّ ﷺ في مُواجهةِ القَوْم، كما أنَّهُ كان يحمي نَفْسَهُ مِنَ الأعداءِ في المعاركِ، وينهى الصحابةَ مِنْ تعرُّضِهِمْ للبَلاءِ، وإيجابِهِمْ على أنفُسِهم ما لم يُوجبْهُ اللهُ عليهم.

فعَن حُذيفةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَنْبغي للمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**». قالوا: وكيف يُذِلُّ نَفْسَهُ؟. قال: «**يتعرَّضُ مِنَ البَلاءِ لما لا يُطِيقُهُ**»[1].

وعَن أَنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ عاد رجلًا مِنَ المُسلمينَ، قَدْ خَفتَ[2]، فصار مِثْلَ الفَرْخِ، فقال لَهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بشَيءٍ أو تسأَلُهُ إيَّاهُ؟**». قال: نَعَمْ، كنتُ أقولُ: اللهُمَّ ما كُنْتَ مُعاقبي به في الآخرةِ، فَعَجِّلْهُ لي في الدُّنيا. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**سُبْحانَ اللهِ لا تُطيقُهُ - أو لا تَسْتطيعُهُ - أفَلا قُلْتَ: اللهُمَّ آتنا في الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النَّار**». قال: فدعا اللهُ لَهُ، فشفاهُ[3].

وعَن العبَّاسِ بن عَبدِ المُطَّلب رضي الله عنه قال: قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، عَلِّمني شيئًا أَسألُهُ اللهَ. قال: «**سَلِ اللهَ العافيةَ**». فمكثْتُ أيَّامًا، ثُمَّ جِئْتُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، علِّمني شيئًا أَسْأَلَهُ

---

(١) رواه أحمدُ (٥/ ٤٠٥)، والتِّرمذيُّ (٢٢٥٤)، وابْنُ ماجَهْ (٤٠١٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٦٧٤)، و«الصَّحيحة» (٦١٣).

(٢) خَفَتَ: ضَعُفَ، وبابُهُ جَلَسَ.

(٣) رواه مسلم (٢٦٨٨).

الله. فقال لي: «يا عبَّاسُ، يا عَمَّ رَسُولِ اللهِ، سَلِ اللهَ العافيةَ في الدُّنْيا والآخرةِ»[١]. وعَنْ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال على المِنْبَرِ: «سَلُوا اللهَ العَفْوَ والعافيةَ؛ فإنَّ أحدًا لَمْ يُعْطَ - بَعْدَ اليَقِينِ - خيرًا مِنَ العافيةِ»[٢].

وقال ﷺ: «لا تتمنَّوْا لقاءَ العَدُوِّ، واسألوا اللهَ العافيةَ، ولكنْ إذا لَقِيتُموهُمْ فاصْبِرُوا، واعلموا أنَّ الجَنَّةَ تحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ»[٣].

وعَنْ أُسامةَ بْنِ زيدٍ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إذا سَمِعْتُمْ بالطَّاعُونِ بأرضٍ فلا تدخُلُوها، وإذا وَقَعَ بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[٤].

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «تعوَّذُوا باللهِ مِنْ جَهْدِ[٥] البَلَاءِ، ودَرَكِ[٦] الشَّقاءِ[٧]، وسُوءِ القَضَاءِ[٨]، وشَمَاتَةِ الأَعْداءِ»[٩].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال: كانَ مِنْ دُعاءِ رسولِ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ إنِّي أعُوذُ بك مِنْ زَوالِ نِعْمَتِكَ، وتحوُّلِ عافيتِكَ، وفُجاءَةِ نِقْمَتِكَ، وجميعِ سَخَطِكَ»[١٠].

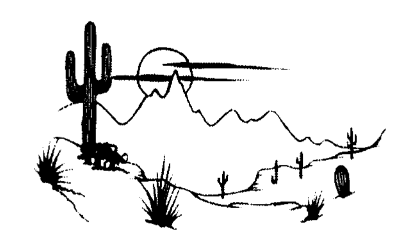
وقال مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «لَأَنْ أُعافى فأَشْكُرَ أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أُبْتَلَى فَأَصْبِرَ»[١١].

---

(١) رواه التِّرْمذيُّ (٣٥٥٨)، وابْنُ ماجَهْ (٣٨٤٩)، وقال الألبانيُّ في «صحيح التِّرمذيِّ» (٣/ ٤٦٤): حَسَنٌ صحيحٌ، وفي «صحيح ابْنِ ماجَهْ» (٣/ ٢٥٩): صحيحٌ.
(٢) رواه التِّرْمذيُّ (٣٥١٤)، وصحَّحه، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التِّرمذيِّ» (٣/ ٤٤٦)، وفي «الصَّحيحة» (١٥٢٣).
(٣) رواه البُخاريُّ (٧٢٣٧)، ومسلم (١٧٤٢)، واللَّفظُ له.
(٤) رواه البُخاريُّ (٥٧٢٨) - واللَّفظُ لَهُ -، ومسلم (٢٢١٨).
(٥) الجهد - بفتح الجيم وضمِّها -: المشقَّة.
(٦) الدَّرْك - بالتَّحريك ويجوز الإسكان -: الإدراك واللَّحاق.
(٧) الشَّقاء: الهلاك، ويُطلق على السَّبب المُؤدِّي إلى الهَلَاكِ.
(٨) سوء القضاء أيْ: سوء المقضيِّ.
(٩) رواه البُخَاريُّ (٦٦١٦) - واللَّفظ له -، ومسلم (٢٧٠٧).
(١٠) رواهُ مسلم (٢٧٣٩).
(١١) «الزُّهْد» لهنَّاد (ص ٢٥٤)، و«الشُّكْر» لابْنِ أبي الدُّنيا (ص ٧٧)، و«عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٩٢)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص ٢٩٥).

وأمَّا ما تقدَّم مِنْ دُعاءِ أُبَيٍّ رضي الله عنه على نَفْسِهِ فاجتهادٌ مِنْهُ، والمأمورُ به شَرْعًا ألَّا يتعرَّضَ المُؤْمِنُ للبَلَاءِ، وأنْ يسألَ اللهَ العافيةَ؛ فإنَّه لا يَدْري فلعلَّهُ لا يقومُ بواجبِ الصَّبْرِ عِنْدَ البَلَاءِ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَسْتُرَنا بعافيتِهِ، ولا يَفْضَحَنا بابْتِلَائِهِ بمَنِّهِ وكَرَمِهِ.



مُقوِّماتُ الصَّبْرِ على البَلاءِ وأسبابُهُ

لَمَّا كان الصَّبْرُ مَأْمُورًا به؛ نصب الله ـ سبحانه ـ له أسبابًا تمُدُّهُ وتُعينُ عليه، وتُوصلُ إليه، كما أنَّه ما قدَّر داءً إلَّا وقدَّر له دواءً، وضَمِنَ الشِّفاءَ باستعمالِه، فالصَّبْرُ وإن كان شاقًا كريهًا على النُّفُوس فتحصيلُهُ ممكنٌ بأسبابٍ إذا ظَفِرَ بها المُبْتَلَى، تخفَّفتْ عنه أحزانُهُ، وتسَّهلتْ عليه أشجانُهُ، فصار وشيكَ السَّلْوَةِ، حَسَنَ العَزاءِ، فمنها:

١ ـ شُهُودُ فوائدِ البلاءِ العظيمةِ وثمراتِهِ الجليلةِ السَّالِفَةِ الذِّكْرِ،والَّتي منها: كتابةُ الحسناتِ، ومَحْوُ السَّيِّئاتِ، ودخولُ الجِنانِ، والنَّجاةُ مِنَ النِّيرانِ، ورضا الرَّحمن...

ولذا قال سَهْلُ بْنُ هارُونَ رحمه الله: «التَّهنئة بآجلِ الثَّوابِ أولى من التَّعْزيةِ بعاجلِ المُصيبةِ»[١].

فإذا شَهِدَ المُصابُ ذلك وتأمَّله، هانتْ عليه مُصيبتُهُ.

قال شقيقٌ البَلْخيُّ: «مَنْ يَرَى ثوابَ الشِّدَّةِ، لا يَشْتهي المَخْرَجَ منها»[٢].

يُحْكَى عَنِ امرأةٍ من العابداتِ: أنَّها عَثَرْتْ، فانقطعتْ إصبَعُها، فضَحِكَتْ، فقال لها بَعْضُ مَنْ معها: أتضحكينَ وقَدِ انقطعتْ إصبعُكِ؟!. فقالتْ: أُخاطِبُكَ على قَدْرِ عَقْلِكَ، حلاوَةُ أَجْرِها أَنْسَتْنِي مرارةَ ذِكْرِها[٣].

٢ ـ شُهُود أنَّهُ مُقدَّرٌ في أُمِّ الكتابِ مِنْ قَبْلِ أنْ يُخْلَقَ، فما أصابه لم يكن ليُخطِئَهُ، وما أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ.

---

(١) «العقد الفريد» (٣/ ٢٣٣)، و«جنَّة الرِّضا» (٣/ ٤٧)، و«بهجة المجالس» (٢/ ٢٥٧).
(٢) «تسلية أهل المصائب» (ص ١٨٩).
(٣) «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٣٩).

قال الله -تعالى- : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الحديد: ٢٢-٢٣).

وقال -تعالى- : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (التغابن: ١١).

قال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما في قوله: ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾قال: «بِأَمْرِ اللهِ، يعني عن قُدْرتهِ ومشيئتِهِ»[١].

وقال ابنُ جَرير رحمه الله: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يقولُ: ومَنْ يُصَدِّقْ بالله، فيعلم أَنَّه لا أَحَدَ تُصيبُهُ مُصيبةٌ إلَّا بإذن الله بذلك ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يقولُ: يُوَفِّقِ اللهُ قَلْبَهُ بالتسليمِ لأَمْرِهِ، والرِّضا بقضائه»[٢].

وقال عَلقمةُ رحمه الله في تفسير هذهِ الآية: «هُوَ الرَّجُلُ تُصيبُهُ المُصيبةُ، فيعلمُ أَنَّها من عِنْدِ اللهِ؛ فَيَرْضَى ويُسَلِّمُ»[٣].

وعن عَبد الله بن عَمرو رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**كَتَبَ اللهُ مقاديرَ الخلائقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرضَ بخمسينَ أَلْفَ سنةٍ**»[٤].

ولهذا لَمَّا جِيءَ بسعيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رحمه الله إلى الحجَّاج؛ لِيَقْتُلَهُ، بَكَى رَجُلٌ، فقال سعيدٌ: ما يُبكيك؟. قال: لما أَصابك.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٨٨).
(٢) «تفسير ابن جرير» (٢٨/ ١٢٣).
(٣) أخرجه البخاريُّ في كتابِ التَّفسير مُعلَّقًا (٨/ ٦٥٣ - معِ الفتح)، ووصله: ابْنُ جرير في «تفسيره» (٢٨ / ١٢٣)، وابْنُ أَبي الدُّنيا في «الرِّضا» (رقم ٧)، والبغويُّ في «شرح السُّنَّة» (٥/ ٤٤٦).
(٤) رواهُ مُسْلِمٌ (٢٦٥٣).

قال: فلا تَبْكِ؛ كان في عِلْمِ اللهِ أنْ يكونَ هذا، ثُمَّ تلا:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ (الحديد: ٢٢)[١].

٣ـ شهودُهُ حَقَّ الله عليه في ذلك البلاء، وواجبُهُ فيه الصَّبْرُ بلا خلافٍ بَيْنَ الأُمَّةِ[٢].

٤ـ شُهُودُ تَرَتُّبِه عليه بذَنْبِه، ويَعْفُو ـ جَلَّ وعلا ـ عن كثيرٍ، فلو كانتْ مصائبُنا على قَدْرِ ذُنُوبِنا لعَظُمَتْ وكَثُرَتْ.

فعن أبي موسى رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا يُصيبُ عَبْدًا نَكْبَةٌ[٣] فما فَوْقَها أو دُونَها إلَّا بذَنْبٍ، وما يَعْفُو اللهُ عنه أكثرُ**». قال: وقرأ: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾(الشورى: ٣٠)[٤].

وقال ﷺ: «**ما اخْتَلَجَ عِرْقٌ ولا عَيْنٌ إلَّا بذَنْبٍ، وما يَدْفَعُ اللهُ عنه أكثرُ**»[٥].

قال عَبْدُ الله بن السَّرِيِّ: قال لي ابْنُ سِيرينَ: «إنِّي لَأَعرِفُ الذَّنْبَ الَّذي حُمِلَ عليَّ به الدَّيْنُ، قُلْتُ لرَجُلٍ من أربعين سنةً: يا مُفْلِسُ».

قال أبو سليمان الدَّارانيُّ: «**قَلَّتْ ذُنُوبُهُمْ؛ فعرفوا مِنْ أَيْنَ يُؤْتَوْنَ، وَكَثُرتْ ذُنُوبُنا؛ فليس نَدْرِي مِنْ أَيْنَ نُؤْتَى**»[٦].

---

(١) انظر «طبقات ابن سعد» (٦/ ٢٦٤)، و«سِّير أَعْلَام النُّبَلَاء» (٤/ ٣٣٧).

(٢) قال ابْنُ تيميَّةَ رحمه الله في «الفتاوى» (١١/ ٢٦٠): «الصَّبْرُ على المصائبِ واجبٌ باتِّفاقِ أئمَّةِ الدِّينِ، وإنَّما اختلفوا في وجوب الرِّضا».

(٣) النَّكْبة ـ بالفتح ـ: العَثْرة بالرِّجْل، ورُبَّما جَرَحَتْ إصبعَهُ، وأَصْلُ النَّكْب: الكَبُّ والقَلْبُ.

(٤) رواه التِّرْمذيُّ (٣٢٥٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٧٧٣٢).

(٥) رواه الطَّبرانيُّ في «الصَّغير» (٢/ ١٠٣) عن البراء بن عازب رضي الله عنه، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٥٢١).

(٦) «حلْية الأولياء» (٢/ ٢٧٢).

واستطال رَجُلٌ على أبي مُعاية الأَسْوَد، فقال لَهُ رَجُلٌ: مَهْ[١].

فقال أبو مُعاوية: «دَعْهُ يَتَشَفَّى»، ثُمَّ قال: «اللهُمَّ اغفرِ الذَّنْبَ الَّذي سَلَّطت عليَّ بِهِ هذا»[٢].

وتعجيلُ العُقُوبةِ للمُؤْمِنِ في الدُّنيا خَيْرٌ لَهُ باعْتِبَارِ أنَّ تَأَخُّرَ العُقُوبةِ إلى الآخرةِ أشدُّ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (طه: ١٢٧).

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إذا أراد اللهُ بعَبْده الخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ العُقُوبةَ في الدُّنيا، وإذا أراد اللهُ بعَبْدِهِ الشَّرَّ، أَمْسَكَ عَنْهُ بذَنْبِهِ، حتَّى يُوافَى بِهِ[٣] يَوْمَ القيامةِ»**[٤].

فإذا عَلِمَ المُبْتَلَى أنَّ بلاءَهُ كفَّارةٌ لذَنْبِه، وأنَّ العُقُوبةَ على الذَّنْبِ في الدُّنيا خَيْرٌ مِنْ تَأْخيرِها للآخرةِ؛ صار بلاءُهُ نِعْمةً يَشْكُرُ اللهَ ـ تعالى ـ عليه.

وشُهُودُ المُبْتَلَى لهذا السَّببِ يَشْغَلُهُ بالاستغفارِ الَّذي هُوَ أعظمُ الأسبابِ في دَفْعِ ذلك البلاءِ.

٥ـ أنْ يَعْلَمَ أنَّهُ وأهْلَهُ ومالَهُ مِلْكٌ لله ـ تعالى ـ حقيقةً، وأنَّ مَرْجِعَهُ إلى اللهِ مالِكِهِ فَرْدًا.

قال ابنُ القيم رحمه الله عَنْ كلمةِ الاسترجاع المَشْرُوعِ قَوْلُها للمُصابِ: «وهذِهِ الكلمةُ مِنْ أبلغِ عِلَاجِ المُصابِ، وأنفعِهِ لَهُ في عاجلَتِهِ وآجلتِهِ؛ فإنَّها تتضمَّنُ أصلَيْنِ عَظيمَيْنِ، إذا تحقَّقَ العَبْدُ بمعرفتهما، تسلَّى عَنْ مُصيبتِهِ:

---

(١) مَهُ ـ مبنيَّةً على السُّكونِ ـ: اسم فعل الأَمْرِ بمعنى: انكفِفْ عمَّا أنت فيه.
(٢) «تسلية أهلِ المصائب» (ص ٢٤٥).
(٣) يَوافَى به أيْ: يُوافيه اللهُ به بمعنى: يُجازيه.
(٤) رواه التِّرْمذيُّ (٢٣٩٦)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصِّفات» (ص ١٥٤)، والبَغَويُّ في «شرح السُّنَّة» (٥/ ٢٤٥)، وقال الألبانيُّ في «صحيح التِّرْمذيِّ» (٢/ ٢٨٥): حسنٌ صحيحٌ.
وللحديث شاهدٌ من حديث عَبْد الله بْن مُغَفَّلٍ، وابْنِ عبَّاسٍ، وعمَّارِ بْنِ ياسرٍ رضي الله عنهم؛ فهو صحيح بمجموع طرقه، وانظر «الصَّحيحة» (١٢٢٠).

أحدهما: أنَّ العَبْدَ وأَهْلَهُ ومالَهُ مِلْكٌ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ حقيقةً، وقَدْ جعَلَهُ عِنْدَ العَبْدِ عاريةً، فإذا أَخَذَهُ مِنْهُ، فهو كالمُعير يَأْخُذُ متاعَهُ مِنَ المُستعير.

وأيضًا فإنَّه محفوفٌ بعَدَمَيْنِ: عَدَمٍ قَبْلَهُ، وعَدَمٍ بَعْدَهُ، ومِلْكُ العَبْدِ لَهُ مُتْعةٌ مُعارةٌ في زمنٍ يسيرٍ.

وأيضًا فإنَّه لَيْسَ الَّذي أوجدَهُ عَنْ عَدَمِهِ، حتَّى يكونَ مِلْكَهُ حقيقةً، ولا هو الَّذي يحفظُهُ مِنَ الآفاتِ بَعْدَ وُجودِهِ، ولا يُبْقي عليه وُجُودَهُ، فليس له فيه تأثيرٌ، ولا مِلْكٌ حقيقيٌّ.

وأيضًا فإنَّهُ مُتصرِّفٌ فيه بالأَمْرِ تَصَرُّفَ العَبْدِ المَأْمُورِ المَنْهيِّ، لا تَصَرُّفَ المُلَّاكِ؛ ولهذا لا يُباحُ له مِنَ التَّصرُّفاتِ فيه إلَّا ما وافق أَمْرَ مالِكِهِ الحقيقيِّ.

والثاني: أنَّ مصيرَ العَبْدِ ومرجعَهُ إلى الله مَوْلاهُ الحقِّ، ولابُدَّ أنْ يُخَلِّفَ الدُّنْيا وراء ظَهْرِهِ، ويجيءَ ربَّهُ فَرْدًا، كما خَلَقَهُ أَوَّلَ مرَّةٍ، بلا أَهْلٍ ولا مالٍ ولا عشيرةٍ، ولكنْ بالحسناتِ والسَّيِّئاتِ.

فإذا كانتْ هذهِ بدايةَ العَبْدِ وما خُوِّلَهُ[1] ونهايتَهُ، فكيف يَفْرَحُ بموجودٍ، أو يَأْسَى على مَفْقودٍ؟!.

ففِكْرُهُ في مَبْدئِهِ ومَعادِهِ مِنْ أعظمِ عِلَاجِ هذا الدَّاءِ»[2].

وتأَمَّلْ ـ أخي ـ ما عزَّى به النَّبيُّ ﷺ ابْنَتَهُ.

فعَن أُسامةَ بن زَيدٍ رضي الله عنهما **قال**: أَرْسَلَت ابْنَةُ النَّبيِّ ﷺ إليه: إنَّ ابنًا لي قُبِضَ فَأْتِنا، فأَرْسَلَ يُقرِئُ السَّلامَ، ويقولُ: «**إنَّ لله ما أَخَذَ، ولَهُ ما أَعْطَى، وكُلٌّ عِنْدَهُ بأَجَلٍ مُسَمًّى؛ فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**». فأرسلتْ إليه تُقْسِمُ عليه لَيَأْتِيَنَّها.

---

(١) يُقالُ: خَوَّلَهُ اللهُ ـ تعالى ـ مالًا: إذا أعطاهُ إيَّاهُ مُتفضِّلًا.

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٨٩).

فقام ومَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ، ومُعاذُ بْنُ جَبَلٍ، وأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وزَيْدُ بْنُ ثابتٍ، ورجالٌ، فَرُفِعُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ الصَّبيُّ، ونَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ[١] ـ قال: حَسِبْتُهُ أنَّهُ قال: كأنَّها شَنٌّ[٢] ـ ففاضَتْ عَيْناهُ، فقال سَعْدٌ: يا رسولَ الله، ما هذا؟!.

فقال: «هـذِهِ[٣] رَحْمَةٌ جَعَلَها اللهُ في قُلُوبِ عِبادِهِ، وإنَّما يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عبادِهِ الرُّحَماءَ»[٤].

٦ ـ أنْ يَعْلَمَ أنَّ اللهَ قدِ ارتضى هذا البلاءَ له، واختاره وقسمه، واللهُ أعلمُ بمصلحتهِ مِنْ نَفْسِهِ، وهو الحكيمُ الَّذي يَضَعُ الأشياءَ في مواضعِها اللَّائقةِ بها، الرَّحيمُ الَّذي رحمتُهُ وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ.

قال ابنُ عطاءِ الله: «لِيُخَفِّفْ عليك البَلاءَ عِلْمُكَ بأنَّهُ ـ سبحانه ـ هُوَ المُبْتَلي، فالَّذي واجهتْكَ مِنْهُ الأقدارُ، هُوَ الَّذي عوَّدك حُسْنَ الاختيارِ»[٥].

٧ ـ أنْ يَعْلَمَ أنَّ البلاءَ يُصيبُ المرْءَ على حَسَبِ دينِهِ، فَمَنْ لم يُبْتَلَ فلا خَيْرَ فيه.

فَعَنْ سَعْدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يا رسولَ الله، أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً؟.

قال: «**الأنبياءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجلُ على حَسَبِ دينِهِ، فإن كان في دينِهِ صُلْبًا، اشتدَّ بَلاؤُهُ، وإنْ كان في دينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِي على قَدْرِ دينِهِ، فما يَبْرَحُ البَلاءُ بالعَبْدِ حتَّى يتركَهُ يمشي على الأرضِ وما عليه خطيئةٌ**»[٦].

---

(١) قال ابنُ الأثير في «النِّهاية» (٤/ ٨٨)، مادَّة (قعقع): «أَيْ: تضطربُ وتتحرَّكُ، أراد: كُلَّما صار إلى حالٍ، لَمْ يَلْبَثْ أنْ ينتقلَ إلى أُخرى، تُقَرِّبُهُ إلى المَوْت».
وقال السِّنْديُّ في حاشيته على النَّسائيِّ (٤/ ٣٢٢): «القَعْقَعة: حكايةُ صَوْتِ الشَّنِّ اليابس إذا حُرِّك، شَبَّهَ البَدَنَ بالجِلْد اليابس الخَلَق، وحَرَكَةَ الرُّوح فيه بما يُطْرَحُ في الجِلْدِ مِنْ حَصَاةٍ، أو نَحْوِهَا».
(٢) الشَّنُّ ـ بالفتح ـ: القِرْبة البالية اليابسة الصَّغيرة، والجَمْعُ شِنانٌ.
(٣) هذه أي: الدَّمْعة.
(٤) رواه البُخاريُّ (١٢٨٤) ـ واللَّفظُ له ـ، ومسلم (٩٢٣).
(٥) «جنَّة الرِّضا» (٣/ ٣٣).
(٦) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٩٨) وصحَّحه، وابْنُ ماجَهْ (٤٠٢٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٩٩٢).

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُصِبْ منه**»(١).

قال أبو عُبَيْدٍ الهَرَوِيُّ: «مَعْناهُ: يَبْتليه بالمصائبِ؛ ليُثيبَهُ عليها»(٢).

وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال لأعرابيٍّ: «**هَلْ أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَم**(٣) **قَطُّ؟**». قال: وما أَمُّ مِلْدَمٍ؟. قال: «**حَرٌّ يكونُ بَيْنَ الجِلْدِ واللَّحْم**». قال: ما وَجَدتُ هذا قَطُّ. قال: «**فَهَلْ أَخَذَكَ هذا الصُّداعُ قَطُّ؟**». قال: وما هذا الصُّداعُ؟. قال: «**عِرْقٌ يَضْرِبُ على الإنسانِ في رَأْسِه**». قال: ما وجدتُ هذا قَطُّ. فلمَّا وَلَّى قال: «**مَنْ أحبَّ أَنْ يَنْظرَ إلى رَجُلٍ مِنْ أهلِ النَّارِ، فَلْيَنْظُرْ إلى هذا**»(٤).

٨ـ أنْ يَعْلَمَ أنَّ الجزَعَ لا يَرُدُّ المُصيبةَ، بَلْ يُضاعفُها؛ إِذْ أَنَّه يُكْسِبُهُ الوِزْرَ، ويُفَوِّتُ عليه الأَجْرَ، ويُضْعِفُ نَفْسَهُ، ويُشْمِتُ عَدُوَّهُ، ويَسُوءُ صَديقَهُ، ويُغْضِبُ ربَّهُ، ويَسُرُّ شيطانَهُ.

قال عليُّ بْنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: «إِنَّك إنْ صَبَرْتَ جَرَتْ عليك المقاديرُ وأنت مأجورٌ، وإنْ جَزِعْتَ جَرَتْ عليك المقاديرُ وأنت مَأْزُورٌ»(٥).

وأُصِيبَ الأَصْنَفُ بمُصيبةٍ فلم يَجْزَعْ لها، فقيل له: إنَّك لَصَبُورٌ!.

فقال: «الجَزَعُ شَرُّ الحالَيْنِ؛ يُباعدُ المطلوبَ، ويُورِثُ الحَسْرَةَ، ويُوقعُ على صاحبِهِ العارَ»(٦).

---

(١) رواه البُخاريُّ (٥٦٤٥).

(٢) «الفتح» (١٠/ ١٠٨).

(٣) أُمُّ مِلْدَم ـ بزنَة مِنْبَر ـ: كُنْية الحُمَّى، والعَرَبُ تقولُ: قالتِ الحُمَّى: أنا أُمُّ مِلْدَمٍ، آكُلُ اللَّحْمَ، وأَمُصُّ الدَّمَ. «لِسانِ العَرَبِ» (١٢/ ٢٦٥).

(٤) رواه أحمدُ (٢/ ٣٣٢)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» (٧٤٩١)، والبُخاريُّ في «الأَدَب المُفرد» (٤٩٥)، والبزَّار في «كشف الأستار» (٧٧٨)، وابْنُ حبَّانَ (٢٩١٦ - الإحسان)، والحاكم (١/ ٣٤٧)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه أحمدُ شاكر في تعليقه على المُسند (٨٣٧٦)، والألبانيُّ في «صحيح الأدب المُفرد» (٣٨١).

(٥) «منهاج القاصدين» للغزاليِّ (ص ٢٣٩)، ونَحْوُهُ في «الرِّضا» لابْنِ أبي الدنيا (ص ٢٩ رقم ١٠).

(٦) «بهجة المجالس» (٢/ ٣٥٥).

وقال ابنُ عُثيمين رحمه الله:

«حال السَّخَطِ حال الهَلِعين الَّذين حُرِمُوا مِنَ الثَّوابِ، ولم يَنْجُوا من المُصيبةِ، بَلِ الَّذين اكتسبوا الإثْمَ، فصار عندهم مُصيبتانِ: مُصيبةٌ في الدِّينِ بالسَّخَطِ، ومُصيبةٌ في الدُّنيا لما أتاهم ممَّا يُؤْلِمُهُمْ»[١].

٩ ـ أنْ يعلمَ أنَّهُ وإنْ بَلَغَ في الجَزَعِ غايتَهُ، فآخِرُ أمْرِهِ إلى صَبْرِ الاضطرارِ، وهو غيرُ محمودٍ ولا مُثابٍ عليه؛ فإنَّهُ استسلم للصَّبْرِ وانقاد إليه على رَغْمِ أنْفِهِ.

قَالَ بَعْضُ الحُكماءِ: «العاقِلُ يَفْعَلُ في أَوَّلِ يَوْمٍ من المُصيبةِ ما يَفْعَلُهُ الجاهلُ بَعْدَ أيَّامٍ، ومَنْ لم يَصْبِرْ صَبْرَ الكِرامِ، سَلَا سُلُوَّ البهائمِ»[٢].

١٠ ـ أنْ يعلمَ أنَّه ـ سبحانه ـ لم يُرسل إليه البلاءَ ليُهلِكَهُ به، ولا ليُعذِّبَهُ به، ولا ليجتاحَهُ، وإنَّما افتقده به؛ ليمتحِنَ صَبْرَهُ ورضاهُ عنه وإيمانَهُ، وليسمعَ تَضرُّعَهُ إليه وابتهالَهُ، وليراهُ طريحًا ببابِهِ، لائذًا بجنَابِهِ، مكسورَ القَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ، رافعًا قَصَصَ الشَّكْوى إليه.

قال -تعالى-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (محمد: ٣١).

قال الشَّيخُ عَبْدُ القادر: «يا بُنَيَّ، إنَّ المُصيبةَ ما جاءتْ لتُهْلِكَكَ، وإنَّما جاءتْ لتمتحِنَ صَبْرَكَ وإيمانَكَ. يا بُنَيَّ، القَدَرُ سَبُعٌ، والسَّبُعُ لا يأكلُ المَيْتَةَ»[٣].

١١ ـ أنْ يعلمَ أنَّ مرارةَ الدُّنيا هي بعَيْنِها حَلاوةُ الآخِرَةِ، والعَكْسُ بالعَكْسِ؛ ولهذا قال ﷺ: «الدُّنيا سِجْنُ المُؤْمِنِ، وجنَّةُ الكافرِ»[٤].

---

(١) «شرح رياض الصالحين» (١/ ١٢١-١٢٢).

(٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٩٣).

(٣) «زاد المعاد» (٤/ ١٩٤).

(٤) رواهُ مسلم (٢٩٥٦) عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

وقال: «**حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكارهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ**»[(١)].

ولَأَنْ ينتقلَ من مرارةٍ مُنقطعةٍ إلى حلاوةٍ دائمةٍ ـ خيرٌ له من عَكْسِ ذلك، والنَّاسُ ـ إلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ ـ آثروا العاجلَ لمُشاهدتِهِ وضَعْفِ الإيمانِ.

١٢ ـ أنْ يتأمَّلَ ما أبقاهُ اللهُ ـ تعالى ـ عليه من النِّعمِ الأُخرى.

قال ابنُ القيِّم رحمه الله: «تَهْوينُ المُصيبةِ بأَمْرَيْن:

أحدهما: أنْ يَعُدَّ نِعَمَ اللهِ عليه وأياديه عنْدَهُ، فإذا عَجَزَ عَنْ عدِّها، وأَيِسَ مِنْ حَصْرِها، هان عليه ما هو فيه من البلاءِ، ورآهُ ـ بالنِّسبة إلى أيادي اللهِ ونِعَمِهِ ـ كقَطْرةٍ مِنْ بَحْرٍ.

الثاني: تذكَرُّ سَوَالِفِ النِّعَمِ[(٢)] الَّتي أنعم اللهُ بها عليه»[(٣)].

جاء رَجُلٌ إلى يُونُسَ بْنِ عُبَيدٍ، فشكا إليه ضِيقًا في حالِهِ ومعاشِهِ واغتمامًا بذلك، فقال: أَيُسرُّكَ ببَصَرِكَ مائةَ أَلْفٍ؟. قال: لا. قال: فبسَمْعِكَ؟. قال: لا. قال: فبلسانِكَ؟. قال: لا. ثُمَّ قال يُونُسُ: أرى لك مِئتينَ ألوفًا وأنت تشكو الحاجةَ![(٤)].

ورُوِيَ أنَّه كان في زَمَنِ حاتمِ الأَصَمِّ رَجُلٌ، يُقالُ له: مُعاذُ الكَبيرُ، أصابتْهُ مُصيبةٌ، فَجَزِعَ منها، وأَمَرَ بإحضارِ النَّائحاتِ، وكَسْرِ الأَوَاني، فَسَمِعَ حاتمٌ، فذهب إلى تَعْزيتِهِ مع تلاميذِهِ، وأَمَرَ تِلْميذًا له، فقال: إذا جَلستُ فاسألني عن قولِهِ -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: ٦)[(٥)]، فسأله فقال: ليس هذا مَوْضِعَ السُّؤال، فسأله ثانيًا وثالثًا، فقال: معناهُ: أنَّ الإنسانَ لكفورٌ، عدَّادٌ للمصائبِ، نسَّاءٌ للنِّعَمِ، مِثْلُ

---

(١) رواهُ مسلم (٢٨٢٢) عن أَنَسٍ رضي الله عنه.
(٢) سوالف النِّعم: مَوَاضيها.
(٣) «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٣٩).
(٤) «سِّير أعْلام النُبلاء» (٦/ ٢٩٢).
(٥) قال الحَسَنُ البَصْريُّ في هذه الآية: «يَذْكُرُ المصائبَ، ويَنْسَى النِّعَمَ» أخرجه ابْنُ أبي الدُّنيا في «المرض والكفَّاراتِ» (ص ١٧٥)، وابْنُ جَريرٍ في «التَّفسير» (٣٠/ ٢٧٨).

مُعاذِ هذا، إنَّ اللهَ ـ تعالى ـ متَّعهُ بالنِّعَم خمسين سنةً، فلم يجمعِ النَّاسَ عليها شاكرًا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فلمَّا أصابتْهُ مُصِيبةٌ، جمعَ النَّاسَ يشكو مِنَ اللهِ ـ تعالى ـ.

فقال مُعاذٌ: بَلَى، إنَّ مُعاذًا لكنودٌ، وعدَّادٌ للمصائِبِ، نسَّاءٌ للنِّعَمِ، فأَمَرَ بإخراجِ النَّائحاتِ، وتاب عن ذلك[1].

١٣ ـ أنْ يَعْلَمَ أنَّ فيما وُقِيَ من المصائبِ، وكُفِيَ من الحوادثِ ما هو أعظمُ من مُصيبتِهِ، وأشدُّ من حادثتِهِ.

قال الغزاليُّ رحمه الله: «كُلُّ مُصيبةٍ ومرضٍ فيتصوَّرُ أنْ يكونَ أكبرُ منها؛ إذْ مقدوراتُ اللهِ لا تتناهى، فلو ضعَّفها اللهُ وزادها، ماذا كان يردُّهُ ويَحْجُزُهُ؟.

فَلْيشكرْ؛ إذْ لم تكن أعظم منها في الدُّنيا ...

فإذنْ ما مِنْ إنسانٍ أُصِيبَ بِبَلاءٍ إلَّا ولو تأمَّل حقَّ التَّأمُّل في سُوءِ أَدَبِهِ ـ ظاهرًا وباطنًا ـ في حقِّ مولاهُ ـ لكان يَرَى أنَّه يَسْتَحقُ أكثرَ ممَّا أُصِيبَ به عاجلًا وآجلًا، ومَنِ استحقَّ عليك أنْ يَضْرِبَكَ مِائَةَ سَوْطٍ، فاقتصر على عشرةٍ ـ فهو مُسْتحقٌّ للشُّكْرِ، ومَنِ استحقَّ عليك أنْ يَقْطَعَ يَدَيْكَ، فتركَ إحداهما، فهو مُستحقٌّ للشُّكْرِ»[2].

وقال حبيبُ بنُ عبيدٍ رحمه الله: «ما ابْتَلَى اللهُ عَبْدًا ببلاءٍ إلَّا كان لله عليه فيه نِعْمةٌ، ألَّا يكونَ ابتلاهُ بأشدَّ مِنْهُ»[3].

ومن أمثالِ العَرَبِ: «إنَّ في الشَّرِّ خيارًا». ومَعْنَاهُ: «بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ»[4].

قال الزَمَخْشَرِيُّ: يُضْرَبُ في تَهوِينِ المُصيبةِ عِلْمًا أنَّ في المصائبِ ما هُوَ فَوْقَها»[5].

---

(١) «بَرْدُ الأكباد» (ص ١١٤).
(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٢٨-١٢٩).
(٣) «الشكر» لابن أبي الدُّنيا (ص ١٣١).
(٤) «مجمع الأمثال» (١/ ١١)، و«فصل المقال» (ص ٢٤٤).
(٥) «المُستقصى في أمثالِ العَرَبِ» (١/ ٤١٣).

وعن عبد العزيز بن أبي روّاد رحمه الله قال: رأيتُ في يَدِ مُحمَّدِ بْنِ واسع قَرْحةً، فكأنَّهُ رأى ما شقَّ عليَّ منها، فقال: تَدْري ما لله عليَّ في هذِهِ القَرْحَةِ مِنْ نِعْمةٍ؟. قال: فَسَكَتُّ. فقال: حيثُ لم يَجْعَلْها على حَدَقَتي[1]، ولا طَرَفِ لساني، ولا على طَرَفِ ذَكَرِي. قال: فهانتْ عليَّ قَرْحَتُهُ[2].

واعلمْ ـ أخي المُصابَ ـ أنَّ أعظمَ المصائبِ هي المُصيبةُ في الدِّين: بفَقْدِ الإيمان، أو الاتِّصاف بالنِّفاقِ، أو بالتَّقصير في واجب، أو الوُقُوع في مُحرَّم، فهذِهِ هي المُصيبةُ على الحقيقةِ؛ ولذلك كان من دعائه ﷺ: «ولا تَجْعَلْ مُصيبتَنَا في دِيننا»[3].

وحُكي عن شُريح القاضي أنه قال: «إنِّي لأُصابُ بالمُصيبةِ، فأَحْمَدُ اللهَ عليها أربعَ مرَّاتٍ وأشْكُرُهُ؛ إذْ لم تكُنْ أعظمَ ممَّا هي، وإذْ رَزَقني الصَّبْرَ عليها، وإذْ وفَّقني الاسترجاع لما أرجوهُ فيه من الثَّوابِ، وإذْ لم يَجْعَلْها في دِيني»[4].

وقال رَجلٌ لسَهلِ بنِ عَبدِ اللهِ التُّستَريْ رحمه الله: دَخَلَ اللِّصُّ بيتي، وأَخَذَ متاعي.

فقال: اشْكُرِ اللهَ -تعالى-، لَوْ دَخَلَ الشَّيطانُ قَلْبَكَ، فأَفْسَدَ إيمانَكَ، ماذا كُنْتَ تَصْنَعُ؟![5].

قال أبو العَتاهية:

إذا أَبْقَتِ الدُّنْيا علىٰ المَرْءِ دِينَهُ ... فما فَاتَهُ منها فَلَيْسَ بضَائرِ
فما تَعْدِلُ الدُّنيا جَنَاحَ بَعُوضةٍ ... لَدَى الله، أوْ مقْدارَ زَغَبةٍ[6] طائرِ
فَلَمْ يَرْضَ بالدُّنْيا ثوابًا لمُؤْمنٍ ... ولَمْ يَرْضَ بالدُّنْيا عقابًا لكافرِ[7]

---

(١) الحَدَقة ـ مُتَحرَّكةً ـ: سواد العَيْن، والجمعُ: حَدَقٌ، أحداقٌ، وحِدَاقٌ.
(٢) «الشكر» لابن أبي الدُّنيا (ص ١٤٠)، و«صفة الصَّفْوة» (٣/ ٢٦٨)، و«عُدَّة الصَّابرين» (ص ٢١٩).
(٣) رواه التِّرمِذيُّ (٣٥٠٢) عَن ابْن عُمَرَ رضي الله عنهما، وحسَّنه ووافقه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٢٦٨).
(٤) «تسلية أهل المصائب» (ص ٢٩٠).
(٥) «بَرْدُ الأكباد» (ص ١٠١)، و«مختصر منهاج القاصدين» (ص ٢٩٣).
(٦) الزَّغبة -مُحَرَّكةً- واحدةُ الزَّغَب، وهو صِغَارُ الرِّيشِ.
(٧) «ديوانه» (ص١٠١-١٠٢).

١٤ـ أنْ يَذْكُرَ مَوْتَ النَّبيّ ﷺ ، فما أُصيبتِ الأُمَّةُ بمُصيبةٍ أجلَّ من مُصيبةِ فَقْدِهِ ﷺ ، وانقطاع نُزُولِ الوَحيِ مِنَ السماءِ، فَلَوْ دامتِ الدُّنْيا لأَحدٍ، لكانتْ له ﷺ أَشَدَّ دوامًا وأحقَّ.

قال ﷺ : «**إذا أُصيبَ أَحَدُكُمْ بمُصيبةٍ، فَلْيَذْكُرْ مُصيبتَهُ بي؛ فإنَّها مِنْ أعظمِ المصائبِ**»[1].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحمن بْنِ القاسم قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ : «**لِيُعَزِّ المسلمين في مصائِبِهِمُ المُصيبةُ بي**»[2].

اصْبِرْ لكُلِّ مُصيبةٍ وتَجَلَّدِ ... واعلمْ بأنَّ المَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ
أَوَ ما تَرَى أنَّ المصائبَ جَمَّةٌ[3] ... وَتَرَى المَنِيَّةَ[4] للعبادِ بمَرْصَدِ؟
مَنْ لَمْ يُصَبْ مِمَّنْ تَرَى بمُصيبةٍ؟ ... هذا سَبيلٌ لَسْتَ عنْهُ بأَوْحَدِ
وإذا ذَكَرْتَ مُصيبةً تَسْلُو بها ... فاذكُرْ مُصابَكَ بالنَّبيِّ مُحَمَّدِ[5]

١٥ـ مَعْرفةُ العَبْدِ بطبيعةِ الحياةِ الدُّنيا، فإنَّها ليستْ بدارِ إقامةٍ ونعيم، وإنَّما ممرُّ ابتلاءٍ وتكليفٍ، فسرورُها أحلامُ نوم، أو كظلٍّ زائلٍ، إنْ اضحكتْ قليلًا، أبْكَتْ كثيرًا، وإنْ سرَّتْ يومًا، ساءتْ دَهْرًا، وإنْ متَّعَتْ قليلًا، مَنَعَتْ طويلًا.

قال ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : «لِكُلِّ فَرْحةٍ تَرْحةٌ، وما مُلِئَ بَيْتٌ فَرَحًا إلَّا مُلِئَ تَرَحًا[6]»[7].

---

(١) أخرجه الدَّارميُّ في المقدِّمة من حديث مكحول رضي الله عنه (٨٥-٨٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٤٧)، و«الصَّحيحة» (١١٠٦).

(٢) أخرجه مالك في «المُوطَّأ» (١/ ٢٣٦)، وابنُ سعد في «الطَّبقات» (٢/ ٢١١)، وابنُ المُبارَكِ في «الزُّهد» (٤٦٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٤٥٩).

(٣) جَمَّة -بالفتح-: كثيرة.

(٤) المَنِيَّة -بزِنَةِ السَّجِيَّة- الموت، واشتقاقُها مِنْ مُنِيَ لَهُ (أيْ: قُدِّرَ)؛ لأَنَّها مُقَدَّرةٌ، والجمعُ المَنَايَا.

(٥) «تسلية أَهلِ المصائبِ» (ص٥٢).

(٦) التَّرَح: الحزن، وبابُهُ فَرِحَ.

(٧) «زاد المعاد» (٤/ ١٩٠).

وقال ابن سيرين رحمه الله: «ما كان ضَحِكٌ ـ قَطُّ ـ إلَّا كان مِنْ بَعْدِه بُكاءٌ»[١].

وقالت هندُ بنتُ النُّعمان: «لَقَدْ رَأَيْتُنا ونَحْنُ مِنْ أعزِّ النَّاس وأشدِّهم مُلْكًا، ثُمَّ لم تَغِبِ الشَّمْسُ حتَّى رَأَيْتُنا ونحنُ أَمَلُّ النَّاسِ، وإنَّهُ حَقٌّ على اللهِ أَلَّا يَمْلأَ دارًا حَبْرةً[٢]، إلَّا مَلأَها عَبْرةً[٣]»[٤].

وسألها رَجُلٌ أَنْ تُحَدِّثَهُ عَنْ أَمْرِها، فقالتْ: أَصْبَحْنا ذا صَباحٍ وما في العَرَبِ أَحَدٌ إلَّا يَرْجُونا، ثُمَّ أمسينا وما في العَرَبِ أَحَدٌ إلَّا يَرْحَمُنا[٥].

وبَكَتْ أُختُها حُرْقَةُ بِنْتُ النُّعْمـان يومًا، وهي في عِزِّها، فقيل لها: ما يُبْكيكِ، لعلَّ أحدًا آذاكِ؟.

قالت: لا، ولكِنْ رأيتُ غَضَارةً[٦] في أَهْلي، وقلَّمـا امتلأَتْ دارٌ سرورًا، إلَّا امتلأَتْ حُزْنًا[٧].

قال إسحاقُ بنُ طَلحةَ: دَخَلْتُ عليها يومًا، فقلتُ لها: كيف رأيت عَبَراتِ المُلُوكِ؟.

قالت: ما نَحْنُ فيه اليَوْمَ خَيْرٌ مِمَّا كُنَّا فيه الأَمْسَ؛ إنَّا نَجدُ في الكُتُبِ: أَنَّهُ ليس من أَهْلِ بَيْتٍ يعيشون في حَبْرَة، إلَّا سَيُعْقَبُونَ بَعْدَها عَبْرَةً، وأَنَّ الدَّهْرَ لم يُظْهِرْ لقومٍ بيومٍ يُحِبُّونَه إلَّا بَطَنَ لهم بيوم يَكْرَهُونه.

ثم قالت: فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ[٨] والأَمْرُ أَمْرُنا[٩] إذا نَحْنُ فيهِمْ سُوقَةٌ[١٠] نَتَنصَّفُ[١١]

فأُفٍّ لدُنْيا لا يَدُومُ نَعِيمُها تقلَّبُ تاراتٍ بنا وتَصرَّفُ[١٢].

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٩٠).
(٢) الحَبْرة ـ بالفتح ـ: السُّرور.
(٣) العَبْرة ـ بالفتح ـ: الحزن، والجمع عَبَراتٌ، وعِبَرٌ.
(٤) «زاد المعاد» (٤/ ١٩٠).
(٥) المرجع السَّابق (٤/ ١٩١).
(٦) الغَضارة ـ بالفتح ـ: الخصب وطِيبُ العَيْشِ.
(٧) «زاد المعاد» (٤/ ١٩١).
(٨) نَسُوس النَّاسَ: نأمرهم وننهاهم، وبابُهُ كَتَبَ.
(٩) الأمر أمرنا أيْ: لا يَدَ فَوْقَ أيدينا.
(١٠) السُّوقة ـ بالضَّمِّ ـ: الرَّعيَّة للواحدِ والجَمْعِ، أو قَدْ يُجْمَعُ على سُوقٍ.
(١١) نَتنصَّفُ: نَخْدُمُ.
(١٢) «زاد المعاد» (٤/ ١٩١).

وقال أبو الفرج بنُ الجوزيّ رحمه الله:

«ولَوْلَا أنَّ الدُّنيا دارُ ابتلاءٍ لم تَعْتَورْ فيها الأمراضُ والأكدارُ، ولم يَضِقِ العَيْشُ فيها على الأنبياءِ والأخيار: فآدمُ يُعاني المِحَنَ إلى أنْ خرج من الدُّنيا، ونُوحٌ بَكَى حتَّى ذهب بَصَرُهُ، ومُوسى يُقاسي فِرْعَوْنَ، ويَلْقَى من قومِهِ المِحَنَ، وعيسى بْنُ مَرْيَمَ لا مَأْوَى لَهُ إلَّا البَرَارِيَّ في العَيْشِ الضَّنْكِ، ومحمَّدٌ ـ صلَّى اللهُ عليه وعليهم أجمعين ـ يُصابرُ الفَقْرَ، وقَتْلَ عمِّهِ حَمْزَةَ وهُوَ من أحبِّ أقربائه إليه، ونُفُورَ قَوْمِهِ منه، وغَيْرُ هؤلاءِ مِنَ الأنبياءِ والأولياءِ ممَّا يطولُ ذِكْرُهُ، ولو خُلِقَتِ الدُّنيا لِلَّذَّةِ، لم يكن حَظٌّ للمُؤْمِنِ منها»[1].

قال أبو الحَسَنِ التهاميُّ رحمه الله في ذَمِّ الدُّنيا:

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأَنْتَ تُرِيدُها ... صَفْوًا مِنَ الأَقْذَاءِ[2] والأَكْدارِ

ومُكَلِّفُ الأيَّامِ ضِدَّ طِباعِها ... مُتَطَلِّبٌ في الماءِ جَذْوَةَ[3] نارِ تَبْنِي

وإذا رَجَوْتَ المُسْتَحِيلَ، فإنَّما ... الرَّجاءَ على شَفِيرٍ[4] هارِ[5].[6]

فَمَنْ أَدْرَكَ حقيقةَ الدُّنيا، وخَبَرَ أَحْوالَها، هان عليه بُؤْسُها ونعيمُها، ولم يُفاجأْ بكَوَارِثِها؛ فالشَّيءُ مِنْ مَعْدِنِهِ لا يُسْتغربُ.

١٦ ـ أنْ يتَأَسَّى[7] بذوي الغِيَرِ[8] ويَتَسَلَّى بأُولي العِبَرِ، ويَعْلَمَ أَنَّهُمُ الأكثرون عددًا، والأسرعون مَدَدًا.

---

(١) «تسلية أهل المصائب» (ص ٣١).

(٢) الأقْذاء: جَمْعُ قَذَىً ـ بزِنَةِ فَتَى ـ، وهو ما يَقَعُ في العَيْنِ والشَّراب مِنْ تُراب، وعُودٍ، ونَحْوهما، ويُجْمَعُ ـ أيضًا ـ على قذيٍّ.

(٣) الجَذْوةِ ـ مُثَلَّثَةً ـ: القَبْسةُ من النَّار، والجَمْعُ جُذًا ـ بالضَّمِّ والكَسْر ـ، وَجِذَاءٌ.

(٤) شفير كلِّ شيءٍ: طَرَفه وجانبه.

(٥) الهار: السَّاقطُ الضَّعيف، يُقال: هُوَ هائرٌ، وهارٌ ـ بالرَّفْع ـ، وهارٍ ـ بالجرِّ ـ، فأمَّا الأُولى فالأَصْلُ مِنْ هار يَهُورُ، وأمَّا الثَّانية فَعلى حَذْف الهمزة، وأمَّا الأخيرةُ فعلى نَقْلِ الهمزةِ إلى بَعْدِ الرَّاء، ثُمَّ عُمِلَ به ما عُمِلَ بالمنقوصِ: كقاضٍ.

(٦) «وفيات الأعيان» (٣/ ٣٨٠).

(٧) يَتأسَّى: يَتَعَزَّى ويتصَبَّرُ.

(٨) الغِيَرِ ـ بزِنَة العِنَب ـ أحداث الدَّهْرِ المُتَغيِّرة، الواحدةُ غِيرةٌ.

وَمِنْ ثَمَّ حَرَصَ القُرآنُ الكريمُ والسُّنَّةُ النَّبويَّةُ على ذِكْرِ قصصِ الأنبياءِ والصَّالحين تَسْليةً للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وتثبيتًا لقُلُوبِهِمْ في مُواجهةِ البلاءِ والفِتَنِ.

قال -تعالى- : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠).

ويَجِيءُ الخِطَابُ الرَّبَّانيُّ لرسولِ الله ﷺ قائلًا: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

فهو ليس بِدْعًا[١] مِمَّا أصاب الرُّسُلَ مِنْ قَبْله، قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأنعام: ٣٤).

ولَمَّا طَعَنَ مُنافقٌ في النَّبيِّ ﷺ بنسْبتِهِ إلى الجَوْرِ[٢] في القِسْمة، شَقَّ ذلك عليه ﷺ وغَضِبَ، ومع ذلك تَلَقَّى الأَذَى بالحِلْمِ والصَّبْرِ تأسيًا واقتداءً بمُوسى عليه السلام.

فعَن ابن مَسْعود رضي الله عنه قال: قَسَمَ النَّبيُّ ﷺ قِسْمةً كبَعْضِ ما كان يَقْسِمُ، فقال رَجُلٌ من الأنصار: واللهِ، إنَّها لقِسْمةٌ ما أُرِيدَ بها وَجْهُ الله.

قُلتُ: أَمَا لأَقُولَنَّ للنَّبيِّ ﷺ ، فأتيتُهُ وهُوَ في أصحابه فسارَرْتُهُ، فَشَقَّ ذلك على النَّبيِّ ﷺ ، وتَغَيَّرَ وَجْهُهُ وغَضِبَ، حتَّى وَدِدْتُ أنِّي لم أَكُنْ أخبرتُهُ، ثُمَّ قال: «قَدْ أُوذِي مُوسى[٣] بأَكْثَرَ مِنْ هذا فَصَبَرَ»[٤].

---

(١) البِدْع ـ بالكِسر ـ : الشَّيء الَّذي يكونُ أوَّلًا، أَيْ: ما كان ﷺ أوَّلَ مَنْ كُذِّب وأُوذي مِنَ الرُّسُلِ.
(٢) الجَوْر: الظُّلْم، وبابُهُ قال.
(٣) يُشير إلى قوله -تعالى- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (الأحزاب: ٦٩).
وقَدْ حُكِيَ في صفة أَذَى بني إسرائيلَ لموسى عليه السلام ثلاثُ قصص:
إحداها: قولُهم: إنَّ به أُدْرةً (انتفاخَ الخُصْية)؛ مِنْ أجل أنَّه كان لا يَغتسلُ إلَّا وَحْدَهُ لشدَّة حيائه.
ثانيها: قولُهم: إنَّهُ قَتَلَ أخاهُ هارُونَ؛ حَسَدًا لحبِّ بني إسرائيلَ له، وكان هارُونُ آلَفَ بهم وأَلْيَنَ، وكان في مُوسى بَعْضُ الغلْظة عليهم.
ثالثها: أَمْرُهُمُ البَغيَّ أنْ تَزْعُمَ أنَّ مُوسى فعل بها؛ ليرجموهُ فيستريحوا منه. انظر «الفتح» (١٢/ ١٤١).
(٤) رواه البُخاريُّ (٦١٠٠) ـ واللَّفْظُ لَهُ ـ ، ومُسْلِمٌ (١٠٦٢).

ولمَّا جاء الصَّحابةُ إلى النَّبيِّ ﷺ يَشْكُونَ له ما يَلْقَوْنَهُ من أذى المُشركين، صَبَّرهم بتَسْلِيَتِهِمْ بِمَنْ مَضَى مِمَّنْ قَبْلَهُمْ.

عن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شَكَوْنا إلى رسولِ الله ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً[1] له في ظِلِّ الكَعْبةِ، فقُلْنا: أَلَا تَسْتَنْصِر لنا؟، أَلَا تَدْعُو لنا؟. فقال: «قَدْ كانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُحْفَرُ لَهُ في الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فيها، فَيُجَاءُ بالمِنْشَارِ، فيوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحديدِ ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فما يَصُدُّهُ ذلك عَنْ دِينِهِ، واللهِ، لَيَتِمَّنَّ هذا الأَمْرُ، حتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخَافُ إلَّا اللهَ، والذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[2].

وَمِن ثَمَّ قال ابنُ القيم رحمه الله: «وَمِنْ عِلاجِهِ: أَنْ يُطْفِئَ نارَ مُصيبتِهِ ببَرْدِ التَّأَسِّي بأَهْلِ المصائبِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ في كُلِّ وادٍ بَنُو سَعْدٍ[3]، وَلْيَنْظُرْ يَمْنَةً، فَهَلْ يَرَى إلَّا مِحْنَةً؟، ثُمَّ لِيَعْطِفْ يَسْرَةً، فَهَلْ يَرَى إلَّا حَسْرَةً؟، وأَنَّهُ لَوْ فَتَّش العَالَمَ لَمْ يَرَ فيهم إلَّا مُبْتَلًى: إمَّا بفَوَاتِ محبوبٍ، أو حُصُولِ مَكْرُوهٍ»[4].

قال مَعْنُ بنُ أَوْسٍ:

وَأَعْلَمُ أَنِّي لم تُصِبْنِي مُصيبةٌ ... مِنَ الدَّهْرِ إلَّا قَدْ أصابتْ فَتًى قَبْلي[5]

وقال عُمَرُ رضي الله عنه: «أَلْصِقُوا بذوي الغِيَرِ، تَتَّسِعْ قُلُوبُكُمْ»[6].

---

(١) البُرْدة ـ بالضَّمِّ ـ: كساءٌ مُخَطَّط يُلْتَحَفُ به، والجمعُ بُرَدٌ.

(٢) رواه البُخاريُّ (٦٩٤٣).

(٣) مَثَلٌ قالَهُ الأَضْبَطُ بنُ قُرَيعٍ السَّعْديُّ، لمَّا تَحَوَّلَ عَنْ قَوْمِهِ، وانتقل في القبائلِ، فلمَّا لَمْ يُحْمِدْهم رَجَعَ إلى قَوْمِهِ.
وقال: «في كُلِّ وادٍ بَنُو سَعْد» يَعْني: سَعْدَ بْنَ زيد مَنَاةَ بْن تَميم. «اللِّسان» (٦/ ٢٦٥).

(٤) «زَادُ المعَاد» (٤/ ١٩٠).

(٥) «بَرْد الأكباد» (ص ٩٥).

(٦) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ٢٩٣).

وعلى مِثْلِ ذلك كانتْ مراثي الشُّعراءِ، قالتِ الخَنْساءُ ـ تَرْثِي أَخَاها لأبيها صَخْرًا ـ :

يُذَكِّرُني طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا ... وأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

فَلَوْلا كَثْرَةُ الباكِينَ حَوْلي ... على إخْوانِهِمْ، لَقَتَلْتُ نَفْسي

ولكِنْ لا أَزالُ أَرَى عَجُولا[١] ... ونائحَةً تَنُوحُ[٢] لِيَوْمِ نَحْسِ[٣]

هُما كِلْتاهُما تَبْكي أَخَاها ... عَشيَّةَ رُزْئِهِ[٤]، أَوْغِبَّ أَمْسِ[٥]

وما يَبْكِينَ مِثْلَ أخي، ولكِنْ ... أُسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بالتَّأَسي[٦]

أمَّا مَنْ أُولِعَ بمُلاحظةِ مَنْ حِيطَتْ سلامتُهُ، وحُرِسَتْ نِعْمَتُهُ، حتَّى الْتَحَفَ بالأَمْنِ والدَّعَةِ، واستمتع بالثَّرْوةِ والسَّعَةِ ـ فلا يُطيقُ صَبْرًا على بَلْوَى، ولا يَلْزَمُ شُكرًا على نُعْمى، وما كان أَحْرَى هذا بمُلاحظةِ مَنْ هُمْ أشدُّ منه بَلاءً؛ فإنَّ النَّظَرَ في حالِ هؤلاءِ أَعْظَمُ تَسْليةً، وأَدْعَى إلى الشُّكْرِ.

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه **قال**:قال رسولُ الله ﷺ : «**انظروا إلى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، ولا تَنْظُروا إلى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ**[٧] **أَلَّا تَزْدَرُوا**[٨] **نِعْمةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»[٩].

١٧ ـ تَذكُّرُ المَوْتِ وسُرْعة النُّقْلَة عَنْ هذهِ الدَّارِ.

فَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه :أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**أَكثروا ذِكْرَ هاذمِ اللَّذَّاتِ**[١٠]: **المَوْتِ**؛

(١) العَجُولِ: الشَّديدة الحُزْنِ على فُقْدانِ وَلَدِها؛ لِعَجَلَتِها في جَيْئَتِها وذهابها جَزَعًا، والجَمْعُ عُجُلٌ وعجائلُ، ومعاجيل.
(٢) النَّوْح: أَنْ يَبْكيَ الإنسانُ على المَيِّتِ بُكاءً على صفة نَوْحِ الحَمَامِ، وقَدْ نَاحَ مِنْ باب قال وكَتَبَ.
(٣) نَحْس ـ بالفتح ـ : شُؤْم.
(٤) الرُّزْء ـ بالضَّمِّ ـ : المُصيبة، والجَمْعُ أَرْزاءٌ.
(٥) غِبَّ أَمْسِ ـ بكسْرِ الغَيْنِ ـ أيْ: عَقِبَهُ وبَعْدَهُ.
(٦) دِيوَانُ الخَنْساء.
(٧) أَجْدَر: أَحَقُّ.
(٨) تَزْدَرُوا: تحتقروا.
(٩) رواه البخاريُّ (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣)، واللَّفْظُ له.
(١٠) هاذم اللَّذَّات: قاطعها.

فإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْهُ أحدٌ في ضِيقٍ مِنَ العَيْشِ إلَّا وسَّعَهُ عليه، ولا ذكَرَهُ في سَعَةٍ إلَّا ضَيَّقها عليه»[١].

فالموتُ يُوَسِّعُ ضِيقَ العَيْش على صاحبِه؛ لعِلْمِه بسُرعةِ الارتحالِ عَنْهُ ومُوافاتِه لثوابِه، ويُضَيِّقُ عليه سَعَةَ العَيْشِ؛ لعِلْمِه بسُرْعةِ ارتحالِه عنها وزوالِها.

١٨ ـ أنْ يَعْلَمَ أنَّ المُصيبةَ أيَّامٌ معلومةٌ، ثُمَّ تَنْجَلي، فَكَأَنْ لم تَكُنْ.

كان مُحمَّدُ بْنُ شُبْرُمَةَ إذا نَزَلَ به بَلاءٌ، قال: «سَحَابةُ صَيْفٍ، ثُمَّ تنقشِعُ»[٢].

وقال بَعْضُ الحُكماءِ: «مَنْ عَلِمَ أنَّ كُلَّ نائبةٍ[٣] إلى انقضاءٍ، حَسُنَ عَزَاؤُهُ[٤] عِنْدَ نُزُولِ البَلَاءِ»[٥].

وحِينَ حضَرَتِ الوَفاةُ عُمرَ رضي الله عنه أنْشَدَ:

تَسَلَّ عَنِ الهُمُومِ؛ فَلَيْسَ شَيْءٌ ... يُقِيمُ، ولا هُمُومُكَ بالْمُقِيمَهْ[٦]

١٩ ـ التَّوَقُّعُ المُستمرُّ والاستعدادُ النَّفسيُّ لجميعِ الاحتمالاتِ، وتَوْطِينُ النَّفْسِ للكوارثِ والمُزْعِجاتِ.

قال بَعْضُ الحُكماءِ: «مَنْ حاذر لم يَهْلَعْ، ومَنْ راقب لم يَجْزَعْ، ومَنْ كان مُتوقِّعًا، لم يَكُنْ مُتوجِّعًا»[٧].

---

(١) رواه ابْنُ حبَّان (٢٩٩٣ - موارد)، والطَّبرانيُّ في الأوسط (٥٠٧٥ - مجمع البحرين)، وحسَّنه الهيثميُّ في «المجمع» (١٠/ ٣٠٩)، والمُنذريُّ في «التَّرغيب» (٤/ ١٢٨)، والألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٢١١).

وله شاهدٌ من حديث أَنَسٍ عند البزَّار في «كشف الأستار» (٣٦٢٣)، حسَّنوه ـ أيضًا ـ في المواضع السَّابقة.

(٢) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٥٤).

(٣) النَّائبة: المُصيبة، والجمع النَّوائِبُ.

(٤) العَزَاء: الصَّبْر.

(٥) «أدب الدُّنيا والدِّين» (ص ٢٩٤).

(٦) المرجع السَّابق (ص ٢٩٣).

(٧) المرجع السَّابق (ص ٢٩٦).

ومات ابْنٌ لعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزيزِ، فكتب إليه بَعْضُ إخوانِهِ يُعَزِّيه عنه، فكتب إليه عُمَرُ: «أمَّا بَعْدُ، فإنَّ هذا أمْرٌ كُنَّا نَعْرِفُهُ، فلمَّا وَقَعَ لم نُنْكِرْهُ، والسَّلامُ»[1].

قال ضابئُ بْنُ الحارثِ البُرْجُميُّ:

ولا خَيْرَ فِيمَنْ لا يُوَطِّنُ نَفْسَهُ   على نائباتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنُوبُ[2]

٢٠ـ صَبِّرْ نفْسَك، وألْزِمْها الصَّبْرَ، فَمَنْ تكلَّفَ الصَّبْرَ، وتمرَّنَ عَلَيْهِ، صار سجيَّةً لَهُ وطبيعيةً لا يشقُّ عليه؛ فإنَّ العَوَائِدَ تنقلُ الطَّبائعَ.

قال ابنُ القيِّم رحمه الله:

«ولا رَيْبَ أنَّ التَّصَبُّرَ مُؤْذِنٌ بتكلُّفٍ وتحمُّلٍ على كُرْهٍ، ولكن هذا لابُدَّ مِنْهُ في الصَّبْرِ، وهو سَبَبُهُ الَّذي يُنَالُ بِهِ، فالتَّصَبُّرُ مِنَ العَبْدِ، والصَّبْرُ ثَمرَتُهُ الَّتي يُفَرِّغُها اللهُ، إذا تعاطاهُ وتكلَّفَهُ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ**»[3].

فَمَنْزِلَةُ التَّصَبُّرِ مِنَ الصَّبْرِ مَنْزِلَةُ التَّعلُّمِ والتَّفَهُّمِ مِنَ العِلْمِ والفَهْمِ، فلابُدَّ مِنْهُ في حُصُولِ الصَّبْرِ»[4].

وقال عُمَرُ رضي الله عنه: «أَفْضَلُ الصَّبْرِ التَّصَبُّرُ»[5].

٢١ـ انتظارُ الفَرَجِ:

قال ابنُ القيِّم رحمه الله مُبيِّنًا أثَرَ انتظارِ الفَرَجِ في تَهْوينِ البَلِيَّةِ:

«انتظارُ رَوْحِ الفَرَجِ ـ يَعْني: راحتَهُ ونَسِيمَهُ ولَذَّتَهُ ـ، فإنَّ انتظارَهُ ومُطالعتَهُ وتَرَقُّبَهُ يُخَفِّفُ حَمْلَ المشقَّةِ، ولا سيَّما عِنْدَ قُوَّةِ الرَّجاءِ، أوِ القَطْعِ بالفَرَجِ؛ فإنَّهُ يَجِدُ في حَشْوِ

---

(١) «بهجة المجالس» لابْن عَبْد البَرِّ (٢/ ٣٥٠)، ونَحْوُهُ في «الأذكار» للنَّوويِّ (ص ١٣٩).
(٢) «بهجة المجالس» (٢/ ٣٥٩).
(٣) رواهُ البُخاريُّ (١٤٦٩)، ومُسْلِمٌ (١٠٥٣) عَنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.
(٤) «طريقُ الهجْرَتَيْن» (ص ٢٦٠).
(٥) «بهجة المَجالسَ» (٢/ ٣٦٤).

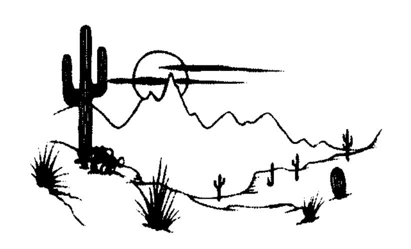
البَلاءِ ـ مِنْ رَوْحِ الفَرَجِ ونَسيمِهِ وراحتِهِ ـ ما هُوَ مِنْ خَفِيِّ الألْطافِ، وما هُوَ فَرَجٌ مُعَجَّلٌ»[١].

وقَدْ وَعَدَ ـ سُبحانَهُ ـ بأنَّ كُلَّ عسيرٍ يتيسَّرُ، وكُلَّ شديدٍ يَهُونُ، وكُلَّ صَعْبٍ يَلينُ، فقال مُؤَكِّدًا: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ (الشرح: ٥-٦).

فَلَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ[٢].

ووَعَدَ بحُسْنِ العِوَضِ عمَّا فات، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٤٢﴾ (النَّحل: ٤١-٤٢).

فهذِهِ الأسبابُ ونَحْوُها تُثْمِرُ الصَّبْرَ على البَلاءِ، فإنْ قَوِيَتْ أَثْمَرتِ الرِّضا والشُّكْرَ.



(١) «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٣٨-١٣٩).

(٢) مَعْنى الآيتَيْن: إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَيْن؛ لأنَّ القاعدةَ الأَغْلَبِيَّةَ: أنَّ النَّكِرَةَ إذا أُعِيدَتْ بلَفْظِها فهي غَيْرُ الأُولى، والمَعْرِفةَ إذا أُعيدَتْ بلَفْظِها فهي عَيْنُ الأُولى، فالعُسْرُ الثَّاني عَيْنُ الأَوَّلِ، واليُسْرُ الثَّاني غَيْرُ الأَوَّلِ، فكأنَّهُ ذُكِرَ العُسْرُ مرَّةً، واليُسْرُ مَرَّتَيْن.

وفي تعريف (العُسْر) بالألِفِ واللَّام الدَّالَّةِ على الاسْتِغْراقِ دلالةٌ على أنَّ كُلَّ عسيرٍ ـ مَهْما بلغ مِنَ الشِّدَّةِ ـ فإنَّ التَّيسرَ مُلازِمٌ لَهُ في آخِرِه.

شُرُوطُ الصَّبْرِ المَشْرُوعِ

الصَّبْرُ المَشْرُوعُ لَهُ ثلاثةُ شُرُوطٍ:

الأوَّل: الإخلاص:

فيكونُ الباعثُ على الصَّبْرِ هُوَ محبَّةَ اللهِ، ورجاءَ ثوابِهِ، وخَوْفَ عِقابِهِ، لا إظهارَ قُوَّةِ النَّفْسِ، والاسْتِحْمادَ إلى الخَلْقِ، وغَيْرَ ذلك من الأغراضِ الفاسدةِ؛ ولهذا قال ـ سبحانَهُ ـ : ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ (الرَّعْد: ٢٢).

وقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ (المُدَّثِّر: ٧)، أَيْ: لأجْلِ ثوابِهِ.

الثَّاني: استعمالُهُ ساعةَ المُصيبةِ الفاجعةِ:

فعَنْ أبي أُمامةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «**يَقُولُ اللهُ ـ سُبْحانَهُ ـ : ابْنَ آدَمَ، إنْ صَبَرْتَ واحْتَسَبْتَ**[1] **عِنْدَ الصَّدْمةِ الأُولى، لَمْ أَرْضَ لَكَ ثوابًا دُونَ الجنَّةِ**»[2].

وعَنْ أنسٍ رضي الله عنه **قال**: مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بامرأةٍ تَبْكي عِنْدَ قَبْرٍ، فقال: «**اتَّقي اللهَ واصْبِري**». قالتْ: إلَيْكَ[3] عنِّي؛ فإنَّك لَمْ تُصَبْ بمُصيبتي، ولم تَعْرِفْهُ، فقيل لها: إنَّهُ النَّبيُّ ﷺ، فأَتَتْ بابَ النبيِّ ﷺ، فلم تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابين، فقالتْ: لم أَعْرِفْكَ.

فقال ﷺ: «**إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمةِ الأُولى**»[4].

---

(١) احتسبت: طلبتَ الأَجْرَ على صَبْرِك من الله خالصًا.
(٢) رواه ابْنُ ماجَهْ (١٥٩٧)، وحسَّنه الأَلْبانيُّ في «صحيح ابْنِ ماجَهْ» (١/ ٢٦٦).
(٣) إليك: اسمُ فِعلِ أَمْرٍ بمعنى: ابْتَعِدْ وتَنَحَّ.
(٤) رواهُ البخاريُّ (١٢٨٣) ـ واللَّفظُ لَهُ ـ، ومسلم (٩٢٦).

قال الخطابيُّ رحمه الله:

«المَعْنى: أنَّ الصَّبْرَ الَّذي يُحْمَدُ عليه صاحبُهُ ما كان عِنْدَ مُفاجأةِ المُصيبةِ، بخلافِ ما بَعْدَ ذلك؛ فإنَّهُ مَعَ الأيَّامِ يَسْلُو»[1].

فالصَّبْرُ المأْجُورُ عليه صاحبُهُ ما كان عِنْدَ مُفاجأةِ المُصيبةِ؛ لأنَّ المُصيبةَ تَرِدُ على القَلْبِ وهُوَ غيْرُ مُوَطَّنٍ لها؛ فَتُزَعْزِعُهُ وتُزْعِجُهُ، وأمَّا إذا وَرَدَتْ عليه بَعْدَ ذلك تَوَطَّنَ لها، وعَلِمَ أنَّه لابُدَّ له منها، فيصبِرُ مُضْطَرًّا.

الثَّالث: سُكونُ الجُوارحِ واللِّسانِ والقَلْبِ:

إنَّ ممَّا يُنافي الصَّبْرَ ويُضادُّهُ لَطْمَ الخُدُودِ، وشَقَّ الجُيُوبِ، ونَتْفَ الشُّعُورِ، والصُّراخَ والدُّعاءَ بالوَيْلِ[2] والثُّبُورِ[3]، والتَّلَفُّظَ بما يُشبِهُ التَّظَلُّمَ ـ مِنْ رَبٍّ عادلٍ لا يَجُورُ؛ ولهذا بَرِئَ النَّبيُّ ﷺ ممَّنْ يفعل هذا.

فعن ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: **«ليْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ، وشَقَّ الجُيُوبَ، ودَعَا بدَعْوَى الجاهليَّةِ[4]»**[5].

وعَن أبي بُرْدَةَ بنِ أبي مُوسى رضي الله عنه قال: وَجعَ أَبُو مُوسَى وَجَعًا، فَغُشِيَ عَلَيْهِ[6]، ورَأْسُهُ

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ١٥٠).

(٢) الوَيْل ـ بالفتح ـ: الهَلاك.

(٣) الثُّبُور: الهَلاكُ والخُسْرانِ.

(٤) دَعْوَى الجاهليَّة: يَشْمَلُ كُلَّ دَعْوى مَنْشَؤُها الجَهْلُ؛ لأنَّه مُفْرَدٌ مُضَافٌ فَيَعُمَّ، والقَرينة لا تُخَصِّصُهُ، هذا ما رجَّحه ابنُ عثيمين رحمه الله في «القول المُفيد على كتاب التَّوحيد» (٢/ ١١٦) وذَكَرَ هذه الأَصْنافَ الثَّلاثةَ؛ لأنَّها غالبًا ما تكونُ عِنْدَ المصائب، وإلَّا فَمِثْلُهُ هَدْمُ البُيُوت، وكَسْرُ الأواني، وتَخْرِيبُ الطَّعامِ، ونَحْوُهُ ممَّا يَفْعلُهُ بَعْضُ النَّاسِ عِنْدَ المُصيبَة، ممَّا يتضَمَّنُ عَدَمَ الرِّضا بالقضاء.
وهذه الثَّلاثةُ مِنَ الكبائر؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ تبرَّأَ مِنْ فاعليها.

(٥) رواه البخاريُّ (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).

(٦) غُشِيَ عليه ـ بضمِّ الغَيْنِ ـ: أُغْمِيَ.

في حَجْرِ[١] امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِه، فصاحتِ امْرأَةٌ مِنْ أَهْلِه، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عليها شيئًا، فلمَّا أفاق قال: «أنا بَرِيءٌ مِمَّا بَرِئَ مِنْهُ رسُولُ اللهِ ﷺ، فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ[٢]، والحالِقَةِ[٣]، والشَّاقَّةِ[٤]»[٥].

وعَن أبي مالكٍ الأشعريِّ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**النَّائحةُ[٦] إذا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِها تُقامُ يَوْمَ القيامةِ[٧] وعليها سِرْبالٌ[٨] مِنْ قَطِرانٍ[٩]، ودِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ[١٠]**»[١١].

وعَن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه **قال:** قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ثلاثةٌ مِنَ الكُفْرِ باللهِ: شَقُّ الجَيْبِ، والنِّياحةُ، والطَّعْنُ في النَّسَبِ[١٢]**»[١٣].

---

(١) حَجْرُ الإنسان ـ بفتح الحاءِ وكَسْرِها ـ: حِضْنُهُ، والجَمْعُ الحُجُورُ.
(٢) الصَّالقة ـ بالصَّاد وقد تُبْدَلُ سينًا ـ: الَّتي تَرْفَعُ صوتَها عِنْدَ المُصيبةِ بالنِّياحةِ.
(٣) الحالقَة: الَّتي تَحْلِقُ شَعَرَها عِنْدَ المُصيبةِ.
(٤) الشَّاقَّة: الَّتي تَشُقُّ ثَوْبَها عِنْدَ المُصيبةِ.
(٥) رواه البخاريُّ مُعَلَّقًا (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤).
(٦) النِّياحة: رَفْعُ الصَّوْتِ بِنَدْبِ الميِّتِ والبُكاءُ عليه بجَزَعٍ وعَويلٍ.
وقد وسَّع بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ معنى النِّياحة، فجعل منها كلَّ ما هيَّجَ المصيبةَ مِنْ وَعْظٍ أو إنشاءِ شِعْرٍ، وهذا اختيار ابْنُ تيميَّةَ. انظر «الفروع» لابن مُفْلح (٢/ ٢٢٧)، و«الإنصاف» لأبي الحسن المَرْداويِّ (٢/ ٥٦٩).
(٧) تُقام يَوْمَ القيامة أي: مِنْ قَبْرِها.
(٨) السِّرْبال ـ بالكَسْر ـ: الثَّوْبُ السَّابِغُ: كالقميص والدِّرْعِ، والجَمْعُ السَّرابيلُ.
(٩) القَطِرانُ: عُصارةُ شَجَرِ الأَبْهَلِ والأَرْزِ ونَحْوِهما، يُطْبَخُ فيُتَحَلَّبُ مِنْهُ، ثُمَّ تُطْلَى بِهِ الإبِلُ المُصابةُ بالجَرَبِ، وهو مُنْتِنُ الرَّائحة، ويُبالغُ في اشتعال النَّار، ويُسَمَّى الزِّفْتَ.
قال المُنْذريُّ في «التَّرغيب» (٤/ ١١٨): «القَطِرانُ ـ بفتح القاف وكَسْرِ الطَّاءِ ـ: قال ابْنُ عبَّاسٍ: هُوَ النُّحاسُ المُذابُ، وقال الحَسَنُ: هُوَ قَطِرانُ الإبِلِ».
(١٠) الجَرَبُ ـ مُتحرِّكةً ـ: مَرَضٌ معروفٌ، يكونُ في الجِلْد، يُؤَرِّقُ الإنسانَ، ورُبَّما يقتلُ الحيوانَ.
والمَعْنى: أنَّ كُلَّ جلدها يكونُ جَرَبًا بمَنْزِلَةِ الدِّرْعِ، وإذا اجتمع قَطِرانٌ وجَرَبٌ زاد البَلاءُ؛ لأنَّ الجَرَبَ أيُّ شيءٍ يَمَسُّهُ يتأثَّرُ بِهِ، فكيف ومعه قَطِرانٌ؟!. والحِكْمَةُ: أنَّها لَمَّا لَمْ تُغَطِّ المُصيبةَ بالصَّبْرِ؛ غُطِّيَتْ بِسِرْبالٍ مِنْ قَطِرانٍ، ودِرْعٍ مِنْ جَرَبٍ، فكان الجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ.
(١١) رواه البخاريُّ (١٢٩٦)، ومسلم (١٠٤).
(١٢) لا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ ثَلاثِ خِصالٍ مِنَ الكُفْرِ في المُؤْمِنِ أنْ يكونَ كافرًا، كما لا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ ثلاثِ خِصالٍ مِنَ الإيمانِ ـ: كالحياءِ، والشَّجاعةِ، والكَرَمِ ـ في الكافرِ أنْ يكونَ مُؤْمنًا.
(١٣) رواه ابْنُ حبَّان في «صحيحه» (٧/ ٤٣٢)، والحاكم في «مُستدركه» (١/ ٥٤٠) وصحَّحه، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح التَّرغيب» (٣٥٢٥).

وقال أبو مسعود البلخي رحمه الله: «مَنْ أُصِيبَ بمُصيبةٍ، فَمزَّق ثَوْبًا، أو ضَرَبَ صَدْرًا - فكأنَّما أَخذَ رُمْحًا يُريدُ أنْ يُقاتِلَ بِهِ ربَّهُ - عزَّ وجلَّ -»[١].

ومنْ تَسَخُّطِ اللِّسانِ سَبُّ الدَّهْرِ، فيَتأذَّى اللهُ - عَزَّ وجلَّ -.

فَعَن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه **قال:** قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«قال اللهُ - عزَّ وجلَّ -: يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأنا الدَّهْرُ، بيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ»**[٢].

قال النَّوويُّ رحمه الله: «أَيْ: لا تَسُبُّوا فاعِلَ النَّوازِلِ[٣]؛ فإنَّكُمْ إذا سَبَبْتُمْ فاعِلَها، وَقَعَ السَّبُّ على اللهِ - تعالى -؛ لأنَّهُ هُوَ فاعِلُها ومُنْزِلُها، وأمَّا الدَّهْرُ - الَّذي هُوَ الزَّمانُ - فلا فِعْلَ لَهُ، بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ جُمْلَةِ خَلْقِ اللهِ - تعالى -»[٤].

فجميعُ الخِصَالِ السَّابقةِ مُحَرَّمةٌ، كيف لا وهي مُشْتملةٌ على التَّسخُّطِ على الرَّبِّ، والإضرارِ بالنَّفْسِ، والتَّظلُّمِ مِنَ اللهِ، وإتلافِ المالِ بتَمْزيقِ الثِّيابِ، ونَدْبِ[٥] المَيِّتِ بما لَيْسَ فيه؟!!.

ولا يُنافي الصَّبْرَ البُكاءُ والحُزْنُ مِنْ غَيْرِ صَوْتٍ ولا كلامٍ مُحرَّمٍ؛ فإنَّ اللهَ - تعالى - قال حكايةً عَنْ يَعْقُوبَ عليه السلام: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٨٤)، قال قتادةُ: «كظم على حُزْنٍ، فلم يَقُلْ إلَّا خيرًا»[٦]. مَعَ قولِهِ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يوسف: ١٨، ٨٣)، والنَّبيُّ إذا وعد وفى ولم يُخلف.

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٣٩).
(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).
(٣) النَّوازل: جمعُ نازلةٍ، وهي المُصيبة من مصائبِ الدَّهْرِ تَنْزِلُ بالنَّاسِ.
(٤) «شرح مسلم» (ص ١٣٩٩).
(٥) النَّدْب: تَعْدادُ محاسنِ المَيِّت، كقولهم: واكاسياهُ!، واجَبَلاهُ!، واعِزَّاهُ!، وبابُهُ نَصَرَ.
(٦) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٥٦)، و«الدُّرّ المنثور» (٤/ ٥٧).

وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يُعذِّبُ بدَمْعِ العَيْنِ، ولا بحُزْنِ القَلْبِ، ولكِنْ يُعَذِّبُ بهذا -وأشار إلى لسانِهِ- أو يرحمُ، وَإنَّ الميِّتَ يُعَذَّبُ ببُكاءِ أَهْلِهِ عليه[١]»[٢].

ومِمَّا يُنافي الصَّبْرَ شَكْوَى العَبْدِ ربَّهُ.

قال ابنُ القيم رحمه الله: «وهذا غايةُ الجَهْلِ بالمَشْكُوِّ والمَشْكُوِّ إلَيْهِ؛ فإنَّهُ لَوْ عَرَفَ ربَّهُ لما شَكَاهُ، ولَوْ عَرَفَ النَّاسَ لما شَكَا إليهِمْ»[٣].

تَلَذُّ لَـهُ الشَّكْوَى، وإنْ لَمْ يَجِـد بها ... صَلاحًا، كَمَا يَلْتَذُّ بالحَكِّ أَجْـرَبُ[٤]

---

(١) حكى النَّوويُّ في «المجموع» (٥/ ٢٨٢) إجماعَ العلماءِ على اختلافِ مذاهبهم على أنَّ المُرادَ بالبُكاءِ الَّذي يُعذِّبُ الميِّت: هو البُكاء بصوتٍ ونياحة، لا بمُجرَّدِ دَمْعِ العَيْنِ.
قُلْتُ: ويَدُلُّ عليه ما جاء في بَعْضِ رواياتِ عُمَرَ رضي الله عنه: «الميِّتُ يُعَذَّبُ في قَبْرِهِ بمَا نِيحَ عليه». رواهُ البخاريُّ (١٢٩٢)، ومسلم (١٧/ ٩٢٧).
وقد اختلف العلماء في مسألةِ تعذيب الميِّتِ بالبُكاءِ عليه على ثمانية أقوالٍ، أقربُها إلى الصَّوابِ قَوْلان:
الأوَّل: قول الجمهور، وهو أنَّ الحديثَ محمولٌ على من أوصى بالنَّوح عليه، أو لم يُوصِ بتركِهِ مع علمِهِ بأنَّ النَّاسَ يفعلونه عادةً، والعذابُ عندهم بمعنى: العقاب.
الثاني: معنى «يُعَذَّبُ» أيْ: يتألَّمُ بسماعه بكاءَ أهْلِه، وترقُّ لهم ويَحْزَنُ، وذلك في البَرْزَخِ، وليس يومَ القيامةِ، وإلى هذا ذهب الطَّبريُّ وغيرُهُ، ونصره ابْنُ تيميَّةَ، وابْنُ القيِّم، وغيرهما، وقالوا: وليس المُراد: أنَّ اللهَ يُعاقِبُهُ ببكاءِ الحيِّ عليه، والعذابُ أعمُّ مِنَ العقاب، كما في قولِهِ ﷺ: «السَّفَرُ قطعةٌ مِنَ العذابِ»، وليس هذا عقابًا على ذنب، وإنَّما هُوَ تعذيبٌ وتألُّمٌ. انظر «أحكام الجنائز» للألبانيِّ (ص ٤١-٤٢).
ورجَّح هذا القولَ القرافيُّ رحمه الله، فقال في «الفروق» (٢/ ٢٩٦): «وهذا الوَجْهُ عِنْدي هُوَ الفَرْقُ الصَّحيحُ، ويبقى اللَّفظُ على ظاهرِهِ، ويُسْتَغْنَى عَنِ التَّأويلِ، وتخطئةِ الرَّاوي، وما ساعدهُ الظَّاهرُ من الأجوبة كان أسعدَها وأولاها».
وقال النَّوويُّ رحمه الله في «شرح مسلم» (ص ٥٩٩): (وإلى هذا ذهب محمَّد بْنُ جرير الطَّبريُّ وغيرُهُ، وقال القاضي عِياضٌ: وهو أولى الأقوال، واحتجُّوا بحديث فيه: أنَّ النَّبيَّ ﷺ زَجَرَ امرأةً عَنْ البُكاءِ على أبيها، وقال: «إنَّ أحَدَكم إذا بكى اسْتَعْبَرَ له صُوَيْحبُهُ، فيا عبادَ الله، لا تُعذِّبُوا إخوانَكُمْ»). اهـ
(٢) رواه البُخاريُّ (١٣٠٤)، وأخرجه مسلم (٩٢٤) بدُونِ الزِّيادةِ الأخيرةِ: «وإنَّ الميِّتَ ...».
(٣) «الفوائد» (ص ١١٤).
(٤) «موارد الظَّمآن» (٢/ ٤٧).

رَأَى بَعْضُهُمْ رجلًا يَشْكُو إلى آخَرَ فاقةً[١] وضَرُورةً، فقال: يا هذا، تَشْكُو مَنْ يَرْحَمُكَ إلى مَنْ لا يَرْحَمُكَ!. ثُمَّ أَنْشَدَ:

وإذا عَـرَتْـكَ بَـلِـيَّـةٌ فَـاصْـبِرْ لها ... صَـبْرَ الـكَـرِيـمِ، فـإنَّـهُ بِـكَ أَعْـلَـمُ

وإذا شَـكَـوْتَ إلى ابْـنِ آدَمَ، إنَّـما ... تَشْكُو الرَّحيمَ إلى الَّذي لا يَرْحَمُ[٢]

قال شقيقُ البَلْخيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ شَكَا مِنْ مُصيبةٍ نَزَلَتْ بِهِ إلى غَيْرِ اللهِ، لَمْ يَجِدْ في قَلْبِهِ حَلَاوةً لطاعةِ اللهِ أَبَدًا»[٣].

وكان عليُّ بْنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: «مِنْ إجلالِ اللهِ، ومَعْرِفَةِ حقِّهِ أَلَّا تَشْكُوَ وَجَعَكَ، ولا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ»[٤].

وأَمَّا أَنِينُ المريضِ فقال ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «التَّحقيقُ أَنَّ الأَنينَ على قِسْمَيْنِ: أَنِينِ شَكْوَى فيُكْرَهُ، وأَنِينِ استراحةٍ وتفْريجٍ فلا يُكْرَهُ، واللهُ أَعْلَمُ»[٥].

وقَدْ وَرَدَ في فَضْلِ الإمساكِ عَنِ الشَّكْوَى لغَيْرِ اللهِ حديثُ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ فيما يَرْويهِ عَنْ ربِّهِ: «**قال اللهُ - تعالى -: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدي المُؤْمِنَ، فَلَمْ يَشْكُنِي إلى عُوَّادِه**[٦] **- أَطْلَقْتُهُ مِنْ إِسَاري، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يَسْتأْنِفُ العَمَلَ**»[٧].

وقَدْ كان سَلَفُنا الصَّالِحُ - رحمهُمُ اللهُ - يَكْتُمونَ ما أَصَابَهُمْ، ولا يَشْكُونَ مَوْلَاهُمْ إلى خَلْقِه.

---

(١) الفاقة: الفَقْر والحاجة.

(٢) «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٣٤). وفي «سير أعْلَام النُّبَلَاءِ» (١/ ٤٣٩): «قال الفُضَيْلُ لرجلٍ يَشْكُو إلى آخر: يا هذا، تَشْكو مَنْ يَرْحَمُكَ إلى مَنْ لا يَرْحَمُكَ!».

(٣) أخرجه البيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» (١٠٠٧٤)، وأَوْرَدَهُ ابْنُ القَيِّم في «عُدَّةِ الصَّابرين» (ص ٤٠٣).

(٤) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٢٧٣).

(٥) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٤٠٣).

(٦) عُوَّادَه: زُوَّاره.

(٧) أَخْرَجَهُ الحاكمُ (١/ ٣٤٩)، والبَيْهَقيُّ (٣/ ٣٧٥)، وقال الحاكمُ: صحيحٌ على شَرْطِ الشَّيخَيْنِ ولم يخرجاهُ، ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٣٠١).

دَخَلَ رَجُلٌ على دَاوُدَ الطَّائِيِّ في فراشِهِ، فرآهُ يَرْجُفُ، فقال: إنَّا للهِ وإنَّا إليْهِ راجعون، فقال: مَهْ، لا تُعْلِمْ بهذا أَحَدًا، وقَدْ أُقْعِدَ[١] قَبْلَ ذلك أربعة أَشْهُرٍ لا يَعْلَمُ بذلك أَحَدٌ[٢].

وشَكَا ابْنُ أَخٍ للأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ وَجَعَ ضِرْسِهِ، فقال لَهُ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: لَقَدْ ذَهَبَتْ عَيْني مُنْذُ أربعينَ سنةً، ما ذَكَرْتُها لأَحَدٍ[٣].

ولَمَّا نَزَلَ في إِحْدَى عَيْنَيْ عَطَاءٍ الماءُ، مَكَثَ عِشْرِينَ سنةً لا يَعْلَمُ بِهِ أَهْلُهُ، حتَّى جاء ابْنُهُ يَوْمًا مِنْ قِبَلِ[٤] عَيْنِهِ الَّتي أُصِيبَ فيها، فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ؛ فَعَلِمَ أَنَّ أَبَاهُ قَدْ أُصِيبَ[٥].

وأَمَّا إخبارُ المُبْتَلَى بالحالِ لا عَلَى سَبيلِ الشَّكْوَى، وإنَّما لإجابةِ مَنْ سَأَلَهُ عَنْ حالِهِ، أو لرجاءِ أنْ يَدُلَّهُ المُخْبَرُ على الدَّواءِ ـ فجائزٌ، ولا يُنافي الصَّبْرَ.

قال ابنُ القيم رحمه الله: «وأَمَّا إخبارُ المَخْلُوقِ بالحالِ، فإن كان لـلاسْتعانةِ بإرشادِه، أو مُعاونتِهِ والتَّوصُّلِ إلى زوالِ ضررِهِ ـ لَمْ يَقْدَحْ ذلك في الصَّبْرِ: كإخبارِ المريضِ للطَّبيبِ بشكايتِهِ، وإخبارِ المَظْلُومِ لِمَنْ ينتصرُ بِهِ بحالِهِ، وإخبارِ المُبْتَلَى ببَلَائِهِ لِمَنْ كان يَرْجُو أَنْ يَكُونَ فَرَجُهُ على يَدَيْهِ، وقَدْ كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا دَخَلَ على المريضِ يَسْأَلُهُ عَنْ حالِهِ، ويقولُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟، وهذا استخبارٌ مِنْهُ واسْتِعْلَامٌ بحالِهِ»[٦]. اهـ

وقال في مَوضعٍ آخرَ: (والفَرْقُ بَيْنَ الإخبارِ بالحَالِ وبَيْنَ الشَّكْوى ـ وإنِ اشْتَبَهَتْ صُورتُها ـ:

---

(١) أُقْعِدَ أي: صار مُقْعَدًا، لا حَرَاكَ به بسَبَبِ المَرَضِ.

(٢) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٤٠٦)، و«تسليةَ أهلِ المصائب» (ص ٢١٦)، وفي «سِير أعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (٤/ ٩٢): «أنَّ عَيْنَهُ ذَهَبَتْ مُنْذُ أربعين سنةً، ما شكاها إلى أَحَدٍ».

(٣) «الزُّهد» للإمام أحمدَ بن حَنْبَل (ص ٣٣٧).

(٤) القِبَل ـ بزنة العِنَب ـ: الجهَة والجانب.

(٥) «تسلية أَهْلِ المَصَائب» (ص ٢١٥)، و«عُدَّة الصَّابرين» (ص ٤٠٦).

(٦) «عُدَّةِ الصَّابرين» (ص ٤٠٢).

أن **الإخبار بالحال**: يَقْصدُ المُخْبرُ به قَصْدًا صحيحًا منْ علْم سَبَب إدانته، أو الاعْتذار لأخيه منْ أَمْر طَلَبَهُ منْهُ، أو يُحذِّرُهُ منَ الوُقُوع في مثْل ما وَقَعَ فيه، فيكونُ ناصحًا بإخباره لَهُ، أوْ حَمْله على الصَّبْر بالتَّأَسِّي به، كما يُذْكَرُ عَن الأَحْنَف: أَنَّهُ شكا إليه رَجُلٌ شَكْوَى، فقال: يا بْنَ أَخي، لَقَدْ ذَهَبَ ضَوْءُ عَيْني منْ كَذَا وكَذَا سنةً، فما أَعْلَمْتُ به أَحَدًا.

ففي ضمْن هذا الإخْبار ـ منْ حَمْل الشَّاكي على التَّأَسِّي والصَّبْر ـ ما يُثَابُ عَلَيْه المُخْبرُ، وصُورَتُهُ صُورةُ الشَّكْوى، ولكنَّ القَصْدَ مَيَّزَ بَيْنَهُما.

ولعلَّ منْ هذا قَوْلَ النَّبيِّ ﷺ لَمَّا قالتْ عائشةُ: «وارَأْساهْ!». فقال: «**بَلْ أنا وارَأْسَاهْ!**»[1]. أَي: الوَجَعُ القَويُّ بي أنا دُونَك، فتأَسَّيْ بي؛ فلا تَشْتكي.

ويَلُوحُ لي فيه معنًى آخَرُ، وهُوَ: أَنَّها كانتْ حبيبةَ رسول الله ﷺ، بَلْ كانتْ أَحَبَّ النِّساء إلَيْه على الإطْلَاق، فلمَّا شَكَتْ إلَيْه رَأْسَها، أخْبَرَهَا أَنَّ به منَ الأَلَم مثْلَ الَّذي بها، وهذا غايةُ المُوافقة منَ المُحبِّ ومَحْبُوبه، يتأَلَّمُ بتأَلُّمه، ويُسَرُّ بسُرُوره، حتَّى إذا آلَمَهُ عُضْوٌ منْ أعْضائه، آلَمَ المُحبَّ ذلك العُضْوُ بعيْنه، وهذا منْ صدْق المحبَّة، وصَفَاء المَوَدَّة.

فالمَعْنَى الأَوَّلُ: يُفْهمُ أَنَّك لا تَشْتكي واصْبري؛ فبي منَ الوَجَع مثْلُ ما بك، فتأَسَّيْ بي في الصَّبْر وعَدَم الشَّكْوَى.

والمَعَنَى الثَّاني: يُفْهمُ إعْلَامَها بصْدق مَحَبَّته لها، أَي: انْظُري قُوَّةَ محبَّتي لَك، كيف واسَيْتُك في أَلَمك ووَجَع رَأْسك، فَلَمْ تكُوني مُتوجِّعَةً، وأنا سَليمٌ منَ الوَجَع، بَلْ يُؤْلمُني ما يُؤْلمُك، كما يَسُرُّني ما يَسُرُّك، كما قيلَ:

وإنَّ أَوْلى البَرايا أنْ تُواسِيَهُ ... عنْدَ السُّرور الَّذي واساكَ في الحُزْن

وأمَّا **الشَّكوَى**: فالإخبارُ العادي عَن القَصْد الصَّحيح، بَلْ يَكُونُ مَصْدَرُهُ السَّخَط وشكَايَةَ المُبْتَلي إلى غَيْره»[2].

ولا تُضادُّ الصَّبْرَ الشَّكْوَى إلى الله ـ تعالى ـ.

---

(١) رواه البُخاريُّ (٥٦٦٦).

(٢) «الرُّوح» (ص ٢٩٩-٣٠٠).

قال ابنُ القيِّم رحمه الله:

«والشَّكْوَى إلى اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ لا تُنافي الصَّبْرَ؛ فإنَّ يَعْقُوبَ عليه السلام وَعَدَ بالصَّبْرِ الجميلِ، والنَّبيُّ إذا وَعَدَ لا يُخْلِفُ، ثُمَّ قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦).

وكَذَلك أَيُّوبُ أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ وَجَدَهُ صابرًا، مَعَ قولِهِ: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)[١].

وقال في مَوْضعٍ آخَرَ: «فالشَّكْوَى إليه ـ سُبْحانَهُ ـ لا تُنافي الصَّبْرَ الجميلَ، بَلْ إعراضُ عَبْدِهِ عَنِ الشَّكْوَى إلى غَيْرِهِ جُمْلَةً، وجَعْلُ الشَّكْوى إلَيْهِ وَحْدَهُ ـ هُوَ الصَّبْرُ، واللهُ ـ تعالى ـ يَبْتَلِي عَبْدَهُ؛ لِيَسْمَعَ شَكْواهُ وتضرُّعَهُ ودُعَاءَهُ، وقَدْ ذَمَّ ـ سبحانَهُ ـ مَنْ لَمْ يتضرَّعْ إليه، ولم يَسْتَكِنْ لَهُ وَقْتَ البَلاءِ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٦).

والعَبْدُ أَضْعَفُ مِنْ أَنْ يتجلَّدَ على ربِّه، والرَّبُّ ـ تعالى ـ لَمْ يُرِدْ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يتجلَّدَ عليه، أراد مِنْهُ أَنْ يَسْتكِينَ لَهُ ويتضرَّعَ إليه، وهُوَ ـ تعَالَى ـ يَمْقُتُ مَنْ يَشْكُوهُ إلى خَلْقِه، ويُحِبُّ مَنْ يَشْكُو ما بِهِ إلَيْهِ، وقِيلَ لبعْضِهِمْ: كَيْفَ تَشْتَكِي إليه ما لَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ؟!، فقال: ربِّي يَرْضَى ذُلَّ العَبْدِ إليه»[٢].

وقال الحَسَنُ في قَوْلِه ـ تعالى ـ على لِسَانِ يَعْقُوبَ عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (يُوسُفَ: ١٨، ٨٣)، قال: «الصَّبْرُ الجميلُ: الَّذي لَيْسَ فيهِ شَكْوَى إلَّا إلى الله»[٣].

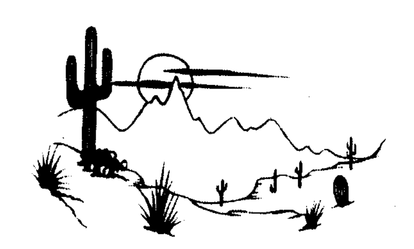
ومِمَّا يُنافي الصَّبْرَ جَزَعُ القَلْبِ، وإنْ لَمْ يُرَ مِنْ صَاحِبِهِ إلَّا الصَّبْرُ.

---

(١) «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٣٤).
(٢) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٦٣-٦٤).
(٣) أَخرَجَهُ ابْنُ أَبي حاتمٍ كما في «الدُّرّ المنثور» (٤/ ١٧).

قال سَعِيدُ بنُ جُبَيرٍ رحمه الله: «قَدْ يَجْزَعُ الرَّجُلُ وَهُوَ يتجلَّدُ، لا يُرَى مِنْهُ إلَّا الصَّبْرُ»[1].

مُرادُهُ: لَيْسَ الصَّبْرُ بالتَّجلُّدِ، وإنَّما هُوَ حَبْسُ القَلْبِ عَنِ التَّسخُّطِ على المَقْدورِ، فَمَنْ تجلَّدَ وقَلْبُهُ ساخطٌ على القَدَرِ، فَلَيْسَ بصابرٍ.



(١) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٥٦).

ما يَقولُه ويَفْعَلُه مَنْ أُصِيبَ بمُصيبةٍ

عن أمِّ سَلمةَ رضي الله عنها أنَّها قالتْ سَمعتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «ما مِنْ مُسْلم تُصيبُهُ مُصيبةٌ، فيقولُ ما أَمَرَهُ اللهُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعون، اللهُمَّ أْجُرْني في مُصيبتي، وأَخْلِفْ لي خيرًا منها ـ إلَّا أَخْلَفَ اللهُ له خيرًا منها».

قالت: فلمَّا مات أبو سَلَمةَ، قُلْتُ: أيُّ المُسلمين خيرٌ مِنْ أبي سَلَمةَ؟، أوَّلُ بَيْتٍ هاجر إلى رسولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ إنيِّ قُلْتُها، فأخلف اللهُ لي رسولَ الله ﷺ[1].

قال القُرطُبيُّ رحمه الله: «قوله-تعالى-: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ جعل اللهُ -تعالى- هذه الكلماتِ مَلْجأً لذَوي المصائبِ، وعصمةً للمُمتحنين؛ لما جَمَعَتْ مِنَ المعاني المُباركةِ؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ توحيدٌ وإقرارٌ بالعُبُوديَّة والمُلْكِ، وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرارٌ بالهُلْك على أنفسُنا، والبَعْثِ مِنْ قُبُورِنا، واليقينِ أنَّ رُجوعَ الأَمْرِ كُلِّه إليه كما هُوَ لَهُ.

قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ رحمه الله: «لَمْ تُعْطَ هذهِ الكلماتُ نبيًّا قَبْلَ نبيِّنا، ولَوْ عَرَفَها يَعْقُوبُ لما قال: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ (يُوسُف: ٨٤)»[2]. اهـ

ويُسْتَحَبُّ للمُصاب أَنْ يَحْمَدَ اللهَ ـ تعالى ـ؛ ليُبْنَى لَهُ في الجنَّةِ بَيْتُ الحَمْدِ، كما في الحديثِ المُتقدِّمِ ذِكْرُهُ في فوائدِ الابتلاءِ.

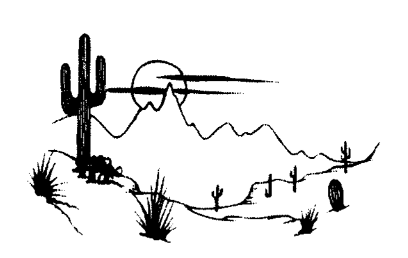
ويُسْتحبُّ لَهُ ـ أيضًا ـ الصَّلاةُ امتثالًا لأَمْرِ اللهِ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ (البقرة: ٤٥).

---

(١) رواه مسلم (٩١٨).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١٨١).

وعَن حُذَيفةَ رضي الله عنه قال: «كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ(١) أَمْرٌ صَلَّى»(٢).

ولَمَّا أُخْبرَ ابْنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهما بوفاةِ أَحَدِ إخوانِه، اسْتَرْجَعَ وصلَّى ركعتين، أطال فيهما الجُلُوسَ، ثُمَّ قام وهو يقولُ: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾(٣).



(١) حَزَبَهُ: نَزَلَ به مُهِمٌّ، أو أصابه غَمٌّ.

(٢) رواه أحمدُ (١/ ٢٠٦)، وأبو داوُدَ (١٣١٩)، وحسَّنه ابْنُ حَجَرٍ في «الفتح» (٣/ ٥٢٤)، والألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٧٠٣).

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٥٢٤)، قال الحافظُ: أخرجه الطَّبرانيُّ بإسنادٍ حَسَنٍ، وانظر «الفروع» لابْنِ مُفْلحٍ (٢/ ٢٢٣).

المُصابُ ولَوْ

أخي، إنْ أصابك شيءٌ ممَّا لا تُحبُّهُ ولا تُريدُهُ، وممَّا يعوقُك عَن الوُصُولِ إلى مَرامِك فيما شَرَعْتَ فيه مِنْ نَفْعٍ ـ فلا تفتح على نفسِكَ بابًا للشَّيطانِ، بأنْ تقولَ:

لَوْ ذَهَبْتُ بابني إلى الطَّبيبِ بُسرعةٍ ما مات، أو: لَوْ أَنِّي ما سافرتُ ما أُصِبتُ بحادثِ السَّيَّارةِ، أوْ نَحْوَ ذلك؛ لأنَّ في هذا القَوْلِ اعتراضًا على القَدْرِ، وهذا مُحرَّمٌ.

قال الله -تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٥٦).

وقال عن المنافقين -أيضًا-: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾ فَرَدَّ اللهُ عليهم مُكَذِّبًا لهم: ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٦٨).

ومَنِ اعْتَرَضَ على القَدَرِ؛ فإنَّهُ لم يَرْضَ باللهِ ربًّا، ومَنْ لَمْ يَرْضَ باللهِ ربًّا؛ فإنَّهُ لم يُحَقِّقْ تَوْحيدَ الرُّبُوبيَّةِ.

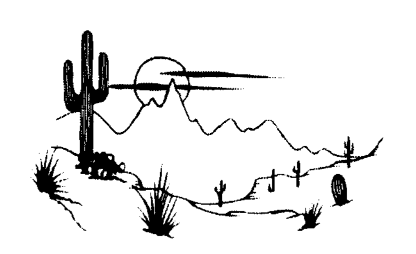
إذًا يجبُ عليك ـ أخي المُصابَ ـ التَّسليمُ بما حصل، واليقينُ بأنَّ ما أصابك لابُدَّ مِنْ حُصُولِهِ، وأنَّه ما شاء اللهُ لابُدَّ أنْ يقعَ على وَفْقِ مشيئتِه ـ جلَّ وعَلَا ـ؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ باللهِ ولا تَعْجَزْ، وإنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فلا تَقُلْ: لَوْ أنِّي فَعَلْتُ كَذا؛ لَكانَ كَذَا وكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وما شاء فَعَلَ؛ فإنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطانِ**»[1].

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

قال السَّعديُّ رحمه الله: «إذا أصاب العَبْدَ ما يَكْرَهُهُ، فلا يَنْسُبْ ذلك إلى تَرْكِ بَعْض الأسبابِ الَّتي يَظُنُّ نَفْعَها لَوْ فَعَلَها، بل يسكن إلى قضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ ليزدادَ إيمانُهُ، ويسكنَ قَلْبُهُ، وتستريحَ نَفْسُهُ؛ فإنَّ (لَوْ) في هذِهِ الحالِ تفتحُ عَمَلَ الشَّيطانِ بنَقْصِ إيمانِهِ بالقَدَرِ، واعتراضِهِ عليه، وفتحِ بابِ الهمِّ والحزنِ المُضْعفِ للقَلْبِ»[١].

فَلْيَكُنْ ـ أخي المُصابَ ـ نُصْبَ عَيْنَيْكَ قَوْلُهُ ﷺ: «إنَّ لِكُلِّ شيءٍ حقيقةً، وما بَلَغَ عَبْدٌ حَقيقةَ الإيمانِ، حتَّى يَعْلَمَ أنَّ ما أصابه لم يَكُنْ ليُخْطِئَهُ، وما أخطأَهُ لم يَكُنْ ليُصِيبَهُ»[٢].

وقولُهُ ﷺ: «لَوْ أنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذهبًا في سبيل الله، ما قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ، حتَّى تُؤْمِنَ بالقَدَرِ، فتَعْلَمَ أنَّ ما أصابك لم يَكُنْ ليُخْطِئَكَ، وما أَخْطَأَكَ لم يَكُنْ ليُصيبَكَ، ولَوْ مُتَّ على غَيْرِ هذا، لَدَخَلْتَ النَّارَ»[٣].



(١) «بهجةَ قلوب الأبرار» (ص ٣٩-٤٠) (ح ١٢).

(٢) رواه أحمدُ (٦/ ٤٤١) عَنْ أبي الدَّرْداء رضي الله عنه، ورواه البزَّارُ في «كَشْفِ الأستار» (٣٣) دُونَ قولِهِ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ حقيقةً»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢١٥٠).

(٣) رواه أحمدُ (٥/ ١٨٥)، وأبو داوُدَ (٤٦٩٩)، وابْنُ ماجَهْ (٧٧) عَنْ أُبَيِّ بْن كَعْب، وزَيْد بْن ثابت، وحُذَيْفَةَ، وابْنِ مسعودٍ ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٢٤٤).

مَرَاتِبُ المُصابين

قال ابنُ القيِّم رحمه الله:

«المَصائبُ الَّتي لا صُنْعَ للعَبْدِ فيها ـ: كمَوْتِ مَنْ يَعِزُّ عليه، وسَرِقةِ مالِه، ومَرَضِه، ونَحْوِ ذلك ـ للعبدِ فيها أرْبَعُ مقاماتٍ:

أحدُها: مَقَام العجز، وهو مقام الجَزَع والشَّكْوى والسَّخَطِ، وهذا ما لا يَفْعَلُهُ إلَّا أقلُّ النَّاسِ عَقْلًا ودِينًا وَمُرُوءةً، وهو أَعْظَمُ المُصيبتَيْن.

المقامُ الثاني: مقامُ الصَّبْرِ: إمَّا لله، وإمَّا للمُروءةِ الإنسانيَّةِ.

المقامُ الثالثُ: مقامُ الرِّضا، وهو أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الصَّبْرِ، وفي وُجُوبِهِ نزاعٌ، والصَّبْرُ مُتَّفقٌ على وُجُوبِهِ.

المقامُ الرابعُ ـ مقامُ الشُّكْرِ، وهو أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الرِّضا، فإنَّهُ يَشْهَدُ البَلِيَّةَ نِعْمةً، فيشكُرُ المُبْتَلِي عليها.

فإن فات العَبْدَ هذا المقامُ العالي، فلا يرضى لنفسِهِ بأخسِّ المقاماتِ وأَسْفَلِها»[1].

وقال ابنُ عثيمين رحمه الله: «النَّاسُ حَالَ المُصيبةِ على مراتِبَ أربعٍ:

المَرْتبة الأولى ـ التَّسَخُّط:

وهُوَ على أنواع:

النوع الأوَّل: أن يكونَ بالقَلْبِ: كأنْ يَتَسَخَّطَ على ربِّه يَغْتاظُ مِمَّا قدَّره اللهُ عليه، فهذا حرامٌ، وقَدْ يُؤَدِّي إلى الكُفْرِ؛ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ

---

(١) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ١٠٥-١٠٦) بتصرُّف.

﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ (الحج: ١١).

النوع الثَّاني: أن يكونَ التَسخُط باللسانِ: كالدُّعاءِ بالوَيْلِ والثُّبورِ، وما أَشْبَهَ ذلك، وهذا حرامٌ.

النوع الثَّالث: أن يكونَ التَسَخُط بالجَوارحِ: كَلَطْمِ الخُدُودِ، وشَقِّ الجُيُوبِ، ونَتْفِ الشُّعُورِ، وما أَشْبَهَ ذلك، وكُلُّ هذا حرامٌ مُنافٍ للصَّبْرِ الواجبِ.

المَرْتبة الثَّانية: الصَّبْرُ:

وهو كما قال الشَّاعرُ:

والصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مَذَاقَتُهُ ... لَكِنْ عَواقِبُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ

فيرى أنَّ هذا الشَّيْءَ ثقيلٌ عليه، لكنَّه يتحمَّلُهُ، وهو يَكْرَهُ وُقُوعَهُ، ولكن إيمانه يَحْميه من السَّخَطِ، فليس وُقُوعُهُ وعَدَمُهُ سواءً عِنْدَهُ، وهذا واجبٌ؛ لأنَّ الله ـ تعالى ـ أَمَرَ بالصَّبْرِ، فقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦).

المَرْتبة الثَّالثة: الرِّضا:

بأنْ يَرْضَى الإنسانُ بالمُصيبةِ بحيثُ يكونُ وُجُودُها وعَدَمُها سواءً، فلا يشُقُّ عليه وُجُودُها، ولا يتحمَّلُ لها حملًا ثقيلًا، وهذه مُسْتحبَّةٌ، وليستْ بواجبةٍ على القَوْلِ الرَّاجحِ[١]، والفَرْقُ بينها وبَيْنَ المرتبةِ الَّتي قَبْلَها ظاهرٌ؛ لأنَّ المُصيبةَ وعَدَمَها سواءٌ في الرِّضا عِنْدَ هذا، أمَّا الَّتي قَبْلَها فالمُصيبةُ صَعْبةٌ عليه، لكِنْ صَبَرَ عليها.

المَرْتبة الرَّابعة: الشُّكْرُ:

وهُوَ أعلى المراتبِ، وذلك بأنْ يَشْكُرَ اللهَ على ما أصابه مِنْ مُصيبةٍ؛ حيثُ عَرَفَ أنَّ هذِهِ المُصيبةَ سَبَبٌ لتكفيرِ سَيِّئاتِهِ، ورُبَّما لزيادةِ حسناتِهِ»[٢].

---

(١) جُمهورُ العلماء على أنَّ الرِّضا بالمَقْضيِّ مُسْتَحبٌّ، وهو اختيار شيخُ الإسلام ابْنُ تَيْميَّةَ رحمه الله انظر «شرح العقيدة الواسطيَّة» (٢/ ٣٥٠).

(٢) «مجموع فتاوى ابن عثيمين» (٢/ ١٠٩).

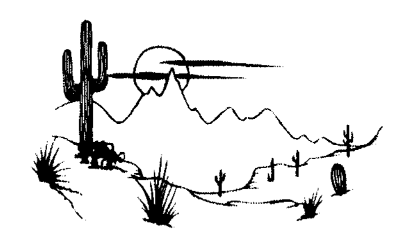
وهؤلاءِ الشَّاكرون هُمُ الأقلُّون عددًا، الأعظمون عِنْدَ اللهِ قَدْرًا.

قال -تعالى- : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣).

ولمزيد إيضاحٍ للفَرْقِ بَيْنَ الرِّضا والصَّبْرِ:

أنَّ الصَّبْرَ: كَفُّ النَّفْسِ وحَبْسُها عَنِ السَّخَطِ مَعَ وُجودِ الألَمِ، وتمنِّي زوالِ ذلك، وكفُّ الجوارحِ عَنِ العَمَلِ بمقتضَى الجَزَعِ.

والرِّضا: انشراحُ الصَّدْرِ وسَعَتُهُ بالقَضَاءِ، وتَرْكُ تمنِّي زوالِ الألَمِ، وإنْ وُجِدَ الإحساسُ بالألَمِ، لكن الرِّضا يُخَفِّفُهُ ما يُباشِرُ القَلْبَ مِنْ روحِ اليقينِ والمعرفةِ، وإذا قَوِيَ الرِّضا فَقَدْ يُزِيبُ الإحساسَ بالألَمِ بالكُلِّيَّةِ[1].



(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ١٩٤) باختصار.

صُوَرٌ مِنَ الصَّبْرِ

١- صَبْرُ ما شِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ

عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «لَمَّا كانت اللَّيلَةُ الَّتي أُسْرِيَ بي فيها، أَتَتْ عليَّ رائحةٌ طيِّبةٌ، فقُلْتُ: يا جِبْرِيلُ، ما هذِهِ الرَّائحةُ الطَّيِّبةُ؟.

فقال: هذِهِ رائحةُ ماشطةِ ابنةِ فِرْعَونَ وأولادِها.

قال: قُلْتُ: وما شَأْنُها؟.

قال: بَيْنا هي تَمْشُطُ ابنةَ فِرْعونَ ذاتَ يَوْمٍ، إذْ سَقَطَتِ المِدْرَى[1] مِنْ يَدَيْها، فقالتْ: باسم اللهِ، فقالتْ لها ابنةُ فِرْعَوْنَ: أَبي؟.

قالتْ: لا، ولكنْ رَبِّي ورَبُّ أبيكِ اللهُ.

قالتْ: أُخْبِرُهُ بذلك؟

قالتْ: نَعَمْ. فأخبرتْهُ، فَدَعاها، فقال: يا فُلانَةُ، وإنَّ لَكِ ربًّا غَيْري؟.

قالتْ: نَعَمْ، ربِّي وربُّكَ اللهُ. فَأَمَرَ ببَقَرةٍ[2] مِنْ نُحاسٍ فأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَمَرَ بها أنْ تُلْقَى هي وأولادُها فيها.

قالتْ لَهُ: إنَّ لي إليك حاجةً.

قال: وما حاجَتُكِ؟.

---

(١) المِدْرَى ـ بالكسر ـ: المُشْطِ، والجَمْعُ مَدَارٍ، ومَدَارَى.

(٢) قالَ ابْنُ الأثير: «قال الحافظُ أبو مُوسى: الَّذي يَقَعُ لي في مَعْناهُ: أنَّهُ لا يُريدُ شيئًا مَصُوغًا على صُورة البَقَرة، ولكنَّه رُبَّما كانتْ قدْرًا كبيرةً واسعةً، فسمَّاها بَقَرةً مأخوذًا مِنَ التَّبَقُّرِ التَّوَسُّعِ، أو كان شيئًا يَسَعُ بَقَرةً تامَّةً بتوابِلِها؛ فَسُمِّيَتْ بذلك». «اللسان» (١/ ٤٥٩).

قالتْ: أُحِبُّ أنْ تَجْمَعَ عِظَامي وعِظامَ وَلَدي في ثَوْبٍ واحدٍ وتَدْفِنُنا.

قال: ذلكَ لكِ علينا مِنَ الحقِّ. قال: فأَمَرَ بأولادِها، فأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْها واحدًا واحدًا، إلى أَنِ انْتَهَى ذلِكَ إلى صَبيٍّ لها مُرْضَعٍ، وكأنَّها تقاعَسَتْ[1] مِنْ أَجْلِه، قال: يا أُمَّةُ[2]، اقْتَحِمي؛ فإنَّ عذابَ الدُّنْيا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخرةِ[3]. فاقْتَحَمَتْ»[4].

٢- صَبْرُ نَبِيّ اللهِ أيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال -تعالى-: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ص: ٤١-٤٤).

وقال -تعالى-: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ (الأنبياء: ٨٣-٨٤).

---

(١) تقاعسَتْ: ثَبَتَتْ وامتنعَتْ ولَزِمَتْ مَوْضِعَها.

(٢) يا أُمَّةُ أيْ: يا أُمِّي، يجعلون علامةَ التَّأنيثِ عِوَضًا مِنْ ياءِ الإضافة، وتَقِفُ عليها بالهاء.

(٣) هكذا كان في الأُمَمِ الأولى، ويُستفادُ منهُ: بَيانُ فَضْلِ اللهِ على هذه الأُمَّةِ؛ إذْ جوَّزَ لها التَّلَفُّظَ بما يُخالفُ عقيدتَها، وقَلْبُها مُطْمئنٌّ بالإيمان، كما قال -تعالى-: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (النَّحل: ١٠٦).

(٤) أخرجه أحمدُ (١/ ٣٠٩)، وحسَّنه الشيخ شُعيبُ الأرنؤوطُ في تعليقه على المسند برقم (٢٨٢١)، وقال: قَدْ سَمِعَ حمَّادُ بْنُ سلمةَ مِنْ عَطاءِ بْنِ السَّائبِ قَبْلَ الاختلاط عند جَمْعٍ مِنَ الأئمَّة، وقال الشيخُ مُصطفى العَدَويُّ في كتابه «الصَّحيح المسنَد مِنْ أحاديث الفِتَنِ والمَلاحم وأشراط السَّاعة» (ص ٢٨): (صحيحٌ لغيره، فله شاهدٌ عِنْدَ ابْنِ ماجَهْ (٤٠٣٠) مِنْ حديثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، عَنْ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بِبَعْضِ مَعْناهُ.

وقَدْ ذكر عددٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ أنَّ حمَّادَ بْنَ سلمةَ قَدْ سَمِعَ مِنْ عَطاءِ بْنِ السَّائبِ قَبْلَ الاختلاطِ). اهـ باختصارٍ وتَصَرُّفٍ.

قال ابنُ كثير رحمه الله: «﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ أَيْ: وجعلناه في ذلك قُدْوةً؛ لئلَّا يَظُنَّ أهلُ البلاءِ أنَّما فعلنا بهم ذلك لهوانهمْ علينا، وليتأسَّوْا به في الصَّبْرِ على مَقْدُوراتِ الله وابتلائِهِ لعبادِهِ بما يشاءُ، وله الحِكْمةُ البالغةُ في ذلك»[1].

وعَن أَنس رضي الله عنه: أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ أَيُّوبَ نبيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَبِثَ في بلائِهِ ثمانيَ عَشْرَةَ سنةً، فرفَضَهُ القريبُ والبعيدُ إلَّا رجلين مِنْ إخوانِهِ، كانا مِنْ أَخَصِّ إخوانِهِ، كانا يَغْدُوانِ إليهِ ويَرُوحانِ، فقال أَحَدُهما لصاحبِهِ: تعلمُ واللهِ لَقَدْ أذنب أَيُّوبُ ذَنْبًا ما أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ العالمين. فقال له صاحبُهُ: وما ذَاكَ؟. قال: مُنْذُ ثمانيَ عَشْرةَ سنةً لم يَرْحَمْهُ اللهُ، فيكْشِفَ ما بِهِ، فلمَّا راح إليه، لم يَصْبِرِ الرَّجُلُ حتَّى ذَكَرَ ذلك لَهُ.

فقال أَيُّوبُ: لا أَدْري ما تقولُ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمُرُّ على الرَّجُلَيْنِ يتنازعانِ، فيَذْكُرانِ اللهَ، فأرجعُ إلى بَيْتي، فأُكَفِّرُ عنهما؛ كراهِيَةَ أَنْ يُذْكَرَ اللهُ إلَّا في حَقٍّ.

قال: وكان يخرجُ إلى حاجته، فإذا قضى حاجتَهُ، أَمْسَكَتِ امْرَأَتُهُ بيدِه، فلمَّا كان ذاتَ يَوْمٍ أَبْطَأَ عليها، فأوحى اللهُ إلى أَيُّوبَ في مكانِهِ: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ (ص: ٤٢).

فاستبطَأَتْهُ فَبَلَغَتْهُ، فأقبل عليها قَدْ أذهب اللهُ ما بِهِ من البَلَاءِ، فهو أَحْسَنُ ما كان، فلمَّا رَأَتْهُ قالتْ: أَيْ بارك اللهُ فيك، هَلْ رأيتَ نبيَّ الله هذا المُبْتَلَى؟، واللهِ على ذلك ما رأيتُ أحدًا كان أَشْبَهَ بِهِ مِنْكَ إذْ كان صحيحًا!.

قال: فإنِّي أنا هُوَ.

وكان لَهُ أَنْدَرانِ[2]: أَنْدَرُ القَمْحِ، وأَنْدَرُ الشَّعيرِ، فَبَعَثَ اللهُ سحابتَيْنِ، فلمَّا كانتْ

(١) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢١١).
(٢) الأَنْدَر: الموضع الَّذي يُداسُ فيه الطَّعامُ، والجَمْعُ الأنادرُ.

إحداهما على أَنْدَرِ القَمْحِ، أَفْرَغَتْ فيه الذَّهَبَ حتَّى فاضَ، وأَفْرَغَتِ الأُخْرَى على أَنْدَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ[١] حتَّى فاضَ»[٢].

٣- صَبْرُ أُمِّ سُلَيْمٍ رضي الله عنها ذاتِ العَقْلِ الحكيمِ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: ماتَ ابْنٌ[٣] لأبي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، فقالتْ لأَهْلِها: لا تُحَدِّثوا أَبا طَلْحَةَ بابْنِهِ، حتَّى أكونَ أنا أُحَدِّثُهُ.

(فلمَّا جاء أبو طَلْحَةَ، قال: كيف الغُلامُ؟. قالتْ: قَدْ هَدَأَتْ نَفْسُهُ، وأَرْجُو أنْ يكونَ قَدِ استراحَ، وظَنَّ أبو طَلْحَةَ أَنَّها صادقةٌ[٤]).

قال: فجاء فقرَّبَتْ إليه عَشَاءً، فأَكَلَ وشَرِبَ، فقال: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ[٥] لَهُ أَحْسَنَ ما كان تَصَنَّعُ قَبْلَ ذلك، فوقع بها[٦]، فلمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وأصاب منها، قالتْ: يا أَبا طَلْحَةَ، أَرَأَيْتَ[٧] لَوْ أَنَّ قَوْمًا أعاروا عاريتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عاريتَهُمْ، أَلَهُمْ أنْ يَمْنَعُوهُمْ؟.

قال: لا.

---

(١) الوَرِق: الفضَّة.

(٢) أخرجه ابْنُ حبَّانَ (٢٨٩٨ - إحسان)، والبزَّارُ (٢٣٥٧)، والطَّبَرِيُّ في «تفسيره» (٢٧/ ١٦٧)، وأبو يعلى (٣٦١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٧٤-٣٧٥)، والحاكم (٢/ ٥٨١-٥٨٢)، وصحَّحه ووافقه الذَّهبيُّ، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٧)، وشيخُنا الوادعيُّ في «الصَّحيح المسند من دلائل النُّبوَّة» (ص ٣٥٠).

(٣) الابْنُ المذكورُ هو أبو عُمَيْرٍ الَّذي كان النَّبيُّ ﷺ يُداعبُهُ قائلًا له: «يا أبا عُمَيْر، ما فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»، وكان غُلامًا صَبِيحًا؛ فكان أبو طَلْحةَ يُحِبُّهُ حبًّا شديدًا. انظر «الفتح» (٣/ ٥٢٠).

(٤) ظَنَّ أبو طَلْحةَ أَنَّ مُرادَها: أَنَّ نَفْسَ الصَّبيِّ المريض سَكَنَتْ بالنَّوم، وأنَّه استراح مِنَ المَرض بالعافية، وإنَّما مُرادُها: أنَّها سَكَنَتْ بالمَوْت بَعْدَ قَلَقِهَا وانزعاجها بالمَرَضِ، وأَنَّهُ استراح مِنْ نَكد الدُّنيا وأَلم المَرَض، فهي صادقةٌ باعتبار مُرادِها، وخَبَرُها بذلك غَيْرُ مُطابقٍ للأَمْرِ الَّذي فَهِمَهُ أبو طَلْحةَ؛ فَمِنْ ثَمَّ قال الرَّاوي: «وظَنَّ أنَّها صادقةٌ» أيْ: باعتبارِ ما فَهِمَ هُوَ.

(٥) تصنَّعَتْ: تَزَيَّنتْ بالحلي ونَحْوِهِ.

(٦) وقع بها: جامعها.

(٧) أَرَأَيْتَ: أخبرني.

قالتْ: فاحْتَسِبِ ابْنَكَ[١].

قال: فَغَضبَ، وقال: تَرَكْتِني حتَّى تَلَطَّخْتُ، ثُمَّ أَخْبَرْتِني بابْني!. فانْطَلَقَ حتَّى أتَى رسولَ الله ﷺ، فأَخْبَرَهُ بمـا كان، فقال رسولُ الله ﷺ: «**بارك اللهُ لكمـا في غابِرِ لَيْلَتِكُمـا**[٢]».

قال: فَحَمَلَتْ، قال: فكان رسولُ الله ﷺ في سَفَرٍ وهي مَعَهُ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ إذا أَتَى المدينةَ مِنْ سَفَرٍ، لا يَطْرُقُها طُرُوقاً[٣]، فَدَنُوْا مِنَ المَدينةِ، فَضَرَبَها المخاضُ[٤]، فاحْتُبِسَ عليها أبو طَلْحَةَ، وانطلق رسولُ اللهِ ﷺ.

قال: يَقُولُ أبو طَلْحةَ: إنَّكَ لَتَعْلَمُ ـ يا رَبِّ ـ أَنَّهُ يُعْجبُني أَنْ أَخْرُجَ مع رسُولِكَ إذا خَرَجَ، وأَدْخُلَ مَعَهُ إذا دَخَلَ، وقَدِ احْتَبَسْتُ بما تَرَى.

قال: تَقُولُ أُمُّ سُلَيْم: يا أبا طَلْحةَ، ما أَجِدُ الَّذي كُنْتُ أَجِدُ؛ انْطَلِقْ. فانطلَقْنا.

قال: وضَرَبها المَخَاضُ حينَ قدما، فَوَلَدَتْ غُلامًا، فقالتْ لي أُمِّي: يا أَنَسُ، لا يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حتَّى تَغْدُوَ به إلى رسول الله ﷺ. قال: فصادَفْتُهُ ومَعَهُ مِيسَمٌ[٥]، فلمَّا رآني قال: «**لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْم وَلَدَتْ؟**». قُلْتُ: نَعَمْ، فوضع المِيسَمَ، قال: وجِئْتُ بِهِ، فوضعتُهُ في حَجْرِه، ودعا رسولُ الله ﷺ بعَجْوةٍ مِنْ عَجْوةِ المدينةِ، فلاكَها[٦] في فِيهِ حتَّى ذابَتْ، ثُمَّ قَذَفَها في فِي الصَّبيِّ، فَجَعَلَ الصَّبيُّ يَتَلَمَّظُها[٧].

قال: فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**انظُروا إلى حُبِّ الأَنْصارِ التَّمْرَ!**».

قال: فَمَسَحَ وَجْهَهُ، وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللهِ.

---

(١) احتسب ابْنَكَ: اطلُبْ ثوابَ صَبْرِكَ على فَقْدِهِ مِنَ الله ـ تعالى ـ.
(٢) غابر لَيْلَتكما: ماضيها.
(٣) لا يَطْرُقُها: لا يَدْخُلها لَيْلًا، وبابُهُ نَصَرَ، ودَخَلَ.
(٤) المخاض: طَلْق الولادة ووَجَعُها.
(٥) الميسم ـ بزِنَة المِنْبَرِ ـ: الحديدة الَّتي يُكْوَى بها.
(٦) لاكَها: مضَغَها، وبابُهُ قال.
(٧) يَتَلَمَّظُها: يتتبَّعُ بلسانِهِ ما في فِيهِ مِنْ آثارِ التَّمْرة.

قال سُفيانُ: فقال رَجُلٌ مِنَ الأنصار: فَرَأَيْتُ لَهما تِسْعَةَ أَوْلَادٍ، كُلُّهُمْ قَدْ قَرَأَ القُرْآنَ][١] يَعْني مِنْ أَولادِ عَبْدِ اللهِ المَدْعُوِّ لَهُ بالبَرَكةِ، الَّذي وُلِدَ مِنْ جِمَاعِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، الَّتي ماتَ فيها الوَلَدُ المَذْكُورُ.

قال النوويُّ رحمه الله: (وفي هذا الحديثِ مَناقِبُ لأُمِّ **سُلَيْم** رضي الله عنها: **مِنْ** عَظِيم صَبْرِها، وحُسْنِ رِضاها بقضاءِ اللهِ ـ تعالى ـ، وجَزالةِ عَقْلِها في إخْفائها مَوْتَهُ على أَبيهِ في أَوَّلِ اللَّيْلِ؛ لِيَبيتَ مُسْتريحًا بلا حزنٍ، ثُمَّ عشَّتْهُ وتَعَشَّتْ، ثُمَّ تصَنَّعتْ لَهُ، وعرضتْ لَهُ بإصابتِهِ، فأصابها.

وفيه استعمالُ المَعاريض عِنْدَ الحاجةِ؛ لِقَوْلِها: «هُوَ أَسْكَنُ مِمَّا كان»[٢]، فإنَّهُ كلامٌ صحيحٌ، مَعَ أنَّ المَفْهُومَ مِنْهُ أَنَّهُ قَدْ هان مَرَضُهُ وسَهُلَ، وهُوَ في الحياةِ، وشَرْطُ المعاريضِ المُباحةِ أَلَّا يضيعَ بها حَقُّ أَحَدٍ، واللهُ أَعْلَمُ)[٣].

وقال: «وضَرْبُها المَثَلَ العاريةِ دليلٌ لكمالِ عِلْمِها وفَضْلِها، وعِظَمِ إيمانِها وطُمأْنينتِها»[٤].

فأُمُّ سُلَيْم رضي الله عنها لم تجْزَعْ ولم تَهْلَعْ كعادة النِّساءِ عِنْدَ المَصائب، ولكنْ تَصَبَّرتْ وتجلَّدَتْ، فكان جَزاءَها أنْ بارك اللهُ لها في ذُرِّيتها مِصْداقًا لقولِهِ ﷺ: «**إنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتِّقاءَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ، إلَّا أَعْطَاكَ اللهُ خيرًا مِنْهُ**»[٥].

٤- صَبْرُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رحمه الله:

رُوِيَ عَنْ سُفيانَ الثَّوريِّ قال:

«قال عُمَرُ لابْنِهِ عَبْدِ المَلِكِ ـ وهو مَريضٌ ـ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟. قال: في المَوْتِ. قال لَهُ:

---

(١) رواه البخاريُّ (١٣٠١)، ومسلم في فضائل الصَّحابة (١٠٧/ ٢١٤٤)، واللَّفْظُ له، وما بَيْنَ المعكوفتين للبُخاريِّ.
(٢) روايةٌ أخرى للبخاريِّ (٥٤٧٠)، ومسلمٍ في الآداب (٢٣/ ٢١٤٤).
(٣) «شرح مسلم» (ص ١٣٤٧).
(٤) المرجع السَّابق (ص ١٤٩٣).
(٥) أخرجه أحمدُ (٥/ ٧٨) عَنْ رَجُلٍ مِنَ الصحابةِ مِنْ أَهْلِ الباديةِ، وصحَّحه شيخُنا الوادعيُّ في «الصَّحيح المسند» (٢/ ٤٣٩) برقم (١٤٨٩).

لَأَنْ تكونَ في ميزاني أَحَبُّ إليَّ أنْ أكونَ في مِيزانِكَ. فقال له: واللهِ، يا أَبَتِ، لَأَنْ يكونَ ما تُحِبُّ أَحَبُّ إليَّ أنْ يكونَ ما أُحِبُّ.

قيل: فلمَّا مات ابْنُهُ عَبْدُ المَلِكِ، قال عُمَرُ: يا بُنَيَّ، لَقَدْ كُنْتَ في الدُّنيا كما قال اللهُ ـ جَلَّ ثناؤُهُ ـ : ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦)، ولَقَدْ كُنْتَ أفضلَ زينتِها، وإنِّي لَأَرْجُو أنْ تكونَ اليَوْمَ مِنَ الباقياتِ الصَّالحاتِ، الَّتي هي خيرٌ ثوابًا، وخيرٌ أَمَلًا، واللهِ، ما سَرَّني أنِّي دَعَوْتُكَ مِنْ جانبِ البَيْتِ فأجَبْتَني.

ولَمَّا دَفَنَهُ قام على قَبْرِهِ، فقال: مازلتُ مَسْرُورًا بكَ مُذْ بُشِّرْتُ بك، وما كُنْتَ ـ قَطُّ ـ أسرَّ إليَّ منك اليَوْمَ، ثمَّ قال: اللهُمَّ اغْفِرْ لعَبْدِ المَلِكِ بْنِ عُمَرَ، ولِمَن استغفر لَهُ»[١].

وعَنْ عَبْد العَزِيز بن سَبْرة، عَنْ أبيه، عَنْ جَدِّه قال:

«لمَّا هَلَكَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، وسَهْلُ بْنُ عَبْدِ العزيزِ، ومُزَاحِمٌ مَوْلَى عُمَرَ في أيَّام مُتتابعةٍ ـ دَخَلَ عليه الرَّبيعُ بْنُ سَبْرَةَ، فقال:

عَظَّمَ اللهُ أَجْرَكَ ـ يا أميرَ المُؤمنين ـ ، ما رأيتُ أَحَدًا أُصِيبَ بأَعْظَمَ مِنْ مُصيبتِكَ في أيَّام مُتتابعةٍ، واللهِ، ما رأيتُ مِثْلَ ابْنِكَ ابنًا، ولا مِثْلَ أَخيكَ أخًا، ولا مِثْلَ مَوْلَاكَ مَوْلًى قَطُّ.

فَطَأْطأ رَأْسَهُ، فقال لي رجلٌ مَعَهُ على الوِسَادِ: لَقَدْ هَيَّجْتَ عليه.

قال: ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فقال: كيف قُلْتَ لي يا ربيعُ؟!. فأعدتُ عليه ما قُلْتُ أوَّلًا، فقال:

لا، والَّذي قَضَى عليه ـ أو قال: عليهمُ ـ المَوْتَ، ما أُحِبُّ أنَّ شيئًا كان مِنْ ذلك لم يَكُنْ»[٢].

---

(١) «بَرْد الأكباد» (ص ٩١)، و«سَلْوة الحزين» لابْنِ أبي حجلةَ التِّلْمْسانيِّ، وذَكَرَ نَحْوَهُ ابْنُ أبي الدُّنيا في «الرِّضا» (ص ٨٢-٨٤).

(٢) «صلاح الأُمَّة» (٤/ ٥١٧).

الخَاتِمَة

وقَبلَ أنْ أَضعَ قلمي أختِمَ الكتابَ بقَولِ ابنِ قيِّم الجوزيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هذا جُهْدُ المُقِلِّ، وقُدْرةُ المُفْلِسِ، حذَّر فيه مِنَ الدَّاءِ، وإنْ كان مِنْ أَهْلِهِ، ووصف فيه الدَّواءَ، وإن لم يَصْبِرْ على تناوُلِه لظُلْمِهِ وَجَهْلِهِ، وهو يَرْجُو أكرمَ الأكرمين وأرحمَ الرَّاحمين أنْ يَغْفِرَ لَهُ غَيَّهُ لنفسِهِ بنصيحتِهِ لعبادِهِ المؤمنين»[1].

فيأيُّها النَّاظرُ فيه، لك غُنْمُهُ، وعلى مُؤَلِّفِهِ غُرْمُهُ، ولك صَفْوُهُ، وعليه كَدَرُهُ، وهذِهِ بضاعتُهُ المُزْجاةُ[2] تُعْرَضُ عليك، وبناتُ أفكارِهِ تُزَفُّ إليك، فإنْ صادفَتْ كُفْءًا كريمًا، لَمْ تَعْدَمْ مِنْهُ إمساكًا بمعروفٍ، أَوْ تسريحًا بإحسانٍ، وإنْ كان غَيْرَهُ فاللهُ المُستعانُ[3]، وعليه التُّكْلانُ، وقَدْ رضي مِنْ مَهْرِها بدَعْوَةٍ خالصةٍ إنْ وافقتْ قَبُولًا واستحسانًا، وبِرَدٍّ جميلٍ إنْ كان حظُّهَا احتقارًا واستهجانًا، والمُنْصِفُ يَهَبُ خَطَأَ المُخطِئِ لإصاباتِهِ، وسيِّئاتِهِ لحسناته، فهذِهِ سُنَّةُ اللهِ في عبادِهِ جَزاءً وثوابًا، ومَنْ ذا الَّذي يكونُ قولُهُ كُلُّهُ سديدًا، وعملُهُ كُلُّهُ صوابًا؟!، وهَلْ ذلك إلَّا المَعْصُومُ الَّذي لا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى، ونُطْقُهُ وَحْيٌ يُوحَى؟!»[4]. اهـ

هذا ولْيَعْلَم القارئُ الكريمُ أنَّ هذا الكتابَ باكورةُ مُعِدِّتِهِ؛ فَلَنْ يَعْدَمَ خطَأً، فأقولُ كما قال القائلُ:

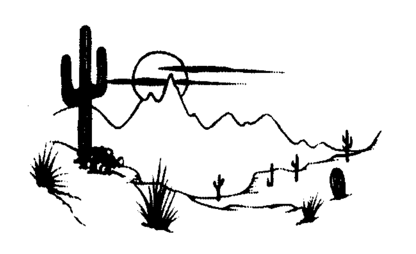
---

(١) «عُدَّة الصَّابرين» (ص ٢٧).
(٢) المُزْجاة: النَّاقصةُ غيرُ التَّامَّة.
(٣) «حادي الأرواح» (ص ٢٣).
(٤) «روضة المُحبِّين» (ص ١٤).

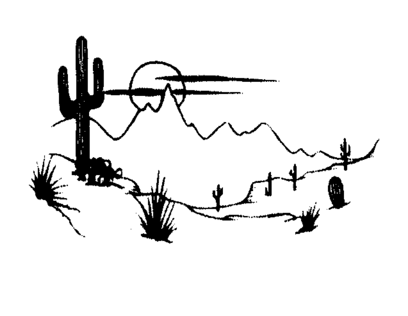
يا مَنْ غَـدَا ناظِرًا فِيمَا كَتَبْتُ، ومَنْ أَضْـحَـى يُقَلِّبُ فِيمَا قُلْتُهُ النَّظَرا
سَأَلْتُكَ اللهَ، إِنْ عايَنْتَ لي خَطَأً فاسْتُرْ عليَّ، فَخيْرُ النَّاسِ منْ سَتَرا[1]

واللهَ أسألُ أَنْ يَمُنَّ عليَّ بقَبُولِهِ، كما مَنَّ عليَّ بإكمالِهِ وتَحْصيلِهِ، وأَنْ يتجاوَزَ عَنْ زلَّاتِهِ وهَفَواتِهِ؛ فإنِّي لم آلُ جَهْدًا[2] في إصابةِ الحقِّ، وأَنْ يَنْفَعَ به مَنْ شاء مِنْ عبادِهِ؛ لتبقى صحيفةُ حسناتي في ازديادٍ في حياتي وبَعْدَ مَماتي، إنَّهُ خَيْرُ مَسْئُولٍ، وأَكْرَمُ مَأْمُولٍ.

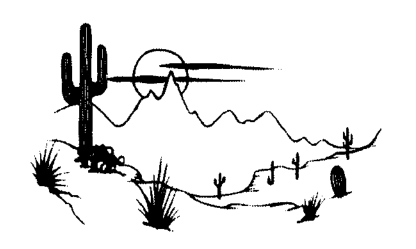
وآخِرُ دَعْوانا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالمين، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعينَ.

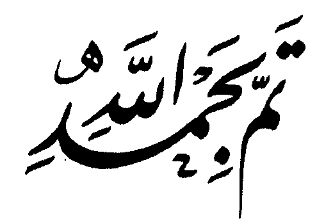


(١) السَّتْرُ يُجْمُلُ مَعَ النَّصيحة بآدابِها، ورَحِمَ اللهُ امْرَأً أَهْدَى إليَّ عُيُوبي.
(٢) لم آلُ جَهْدًا أي: لم أَدَعْهُ.



مُحتويات الكتاب




تم بحمد الله